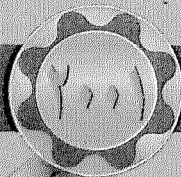


مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع

إبراهيم عبد القادر المازني

صندوق الدنيا



الأعمال الفكرية



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

892.73

6

عاز

6A

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

كتاب عربي
رقم المكتبة ١٠٠٠٠

١٠٠٠٠

صندوق الدنيا

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني : الخبز

التقنية: زيت على أبلكاش

المقاس: ٦٢ × ٧٨ سم

مقتنيات: متحف الفن الحديث بالقاهرة

محمد ناجى (١٨٨٨ - ١٩٥٦)

ولد الفنان محمد ناجى بالإسكندرية، ودرس الفن فى مصر والخارج، وعمل مع كلوديا مونييه بباريس، وفى ١٩٣٧ أقام معرضاً للوحات التى صورها فى الحبشة (قاعة الفنون الجميلة بلندن)، وعين مديراً لمتحف الفن الحديث ١٩٣٩، ومديراً لأكاديمية مصر فى روما ١٩٤٧، والفنان ينحدر من اتجاه الفن التأثيرى ذو الطبيعة المصرية، ويعد سابقاً لعصره.

محمود الهندى

صندوق الدنيا

الطبعة الثانية

إبراهيم عبد القادر المازني



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

صندوق الدنيا

إبراهيم عبد القادر المازني

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر فى تناول الجميع ليشبع نهمة للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تترعب فى صدارة البيت المصرى بثناء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرخان

The first part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people. The second part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people. The third part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people. The fourth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people. The fifth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people. The sixth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people. The seventh part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people. The eighth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people. The ninth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people. The tenth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that the study of the history of the United States is essential for a full understanding of the country and its people.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كنا نفرح « بصندوق الدنيا » ونحن أطفال ... نكون في لعبنا وصخبنا فيلبح أحدنا « الصندوق » مقبلاً من بعيد فيلقى ما بيده من « كرة » ، أو نحوها ويطلقها صيحة مجلجلة ويذهب يعدو متوثباً ونحن في أثره ، وتعلق بثياب الرجل أو مرقعته على الأصح ، فما هي بثياب إلا على الجاز ، فهذا بمسك بكمه ، وذاك بحزامه ، وآخر يده على الصندوق ، وهو سائر وظهره منحني تحت حمله ، ولحيته الكثة الغبراء مثنية على صدره ، ونحن تتلاغط حوله وتوثب ، حتى يصير بنا إلى الظل ، فيضع « الدكة » الخشبية على الأرض فنكون فوقها نتزاحم وتندافع وتتصايح ونلشاشم قبل أن تستقر على أرجلها ، والرجل ساكن الطائر لا يعبأ بنا ولا يولينا نظرة ولا يحفل من بقى منا على « دكته » ، ومن زحزح عنها فوقع على الأرض فقام يلعن ويسب أو يبكي ويتوجع ، أو يمضى إلى الحائط فيلصق به كتفه ويعمل يده في عينه .

ويخلع الرجل الحوامل عن كتفه ويقيسها أمامه ويرفع « الصندوق » ويحطه عليها ، فبزحف نحن « بالدكة » إليه وندنى وجوهنا من العيون الزجاجية الكبيرة ، وننظر وننتظر . فإن صاحبنا لا يعجل ، ويطول بنا النظر إلى لا شيء . والانتظار على غير جدوى ، فترتد برءوسنا عن عيون الصندوق ، ونرفع إليه وجوهنا الصغيرة ، فيبتسم ويسط كفاً

كالرغيف ويقول « هاتوا أولا ، فتندفع الأيدي إلى الجيوب تبحث عن الملايم وأنصافها فتفوز بها أو تخطئها ، فتبيض وجوه وتسود وجوه وتلع عيون وتنطفي عيون ، وتفتقر شفاه وتمط أخرى أو تتدلى ، ويقبل « المعدم » على الموسر ، يستسلفه مليما ، ويحدث في عالم الصغار ما يحدث في عالم الكبار ، من جود وبخل ، ومن مسارعة إلى النجدة أو اغتنامها فرصة للانتقام ، ومن مساومة ومشاركة ومطل ، ومن تعبير ببحود يد سلفت ، ومحاسبة على دين قديم ، ويرجع المحرومون كاسفين آسفين أو ناقلين ثاثرين ، أو راضين غير عابئين ، ويقعد السعداء ويقبلون على « الصندوق » وقد نسوا أخوانهم ، فكأنهم ما خلقوا ولا كانوا منذ دقائق قليلة أندادا يتلاعبون ويفرح بعضهم ببعض ويجد في قربه الروح والغبطة والآنس ، ويطل الرجل من عين في جانب « الصندوق » ويدير اليد ، فتبدو لعيوننا المشربة صور « السفيرة عزيزة » ربة الحسن والجمال ، و « عنزة ابن شداد » الذي كان :

يهزم الجيش أوحديا ويلوى

بالصناديد أيما الواء

و « الزير سالم » و « يوسف الحسن » . .

ويكف اللسان عن الوصف والتحدث ، واليد عن الإدارة والعرض ، فقد انتهى « الدور » واستوفينا حقنا ، فأما « دور » آخر بملايم جديدة ، وإلا فالقناعة كنز لا يفنى .

وقد شبت عن الطوق جداً ، وخلفت ورأى طفولتى التى
لا تعود .

وصرت غيرة فليس يعرفنى
إذا رأى الشباب ذو الطرر
ولو بدا لى لبت أنكره
كأنتى لم أكنه فى عمرى
كأنا اثنان ليس يجمعنا
فى العيش ، ألا تشبت الذكر
مات الفتى المازن ثم أتى
من مازن غيره على الأثر (١)

ولكنى مازلت امت إلى طفولتى بسبب قوى ، وما انفكت أحرأى
معقودة بأولاهما . كنت أجلس إلى الصندوق وأنظر مافيه ، فصرت أحمله
على ظهري وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها عسى أن
يستوفى نفر من أطفال الحياة الكبار ، فأحط الدكة وأضع الصندوق
على قوائمهم وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم
قليلة يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر الذى شرب فيافى الزمان ،
وما له سوى آماله وهى لوافع ، ونجم سوى ذكرى نورها خافت .
لهذا سميت « صندوق الدنيا » .

(١) من قصيدتى « كأس النسيان » .

ولا أزال أجمع له وأحشد ، وما قفى السؤال الأبدى عندى مذ
حملت صندوقى على ظهرى « ماذا أصور ؟ » هذه هى المسألة كما يقول
« هملت » فى روايته الخالدة ، والفرق بينى وبين هملت أنه معنى بالحياة
والموت ، وبأن يكون أولا يكون ، وبأن يبقى على نفسه أو يبتلعها ،
أما أنا فلا يعنينى شئ من هذا ، ولست أراى أحفل لا الحياة ولا
الموت ، ولا الوجود ولا العدم ، أو لعل الأصح والأشبه بالواقع أن
أقول لى لا أرى وقتى يتسع للتفكير فى هذا ، ذلك انى صرت
كالذى زعموا أنه كانت له زوجة ترهقه بالتكاليف وتضنيه بالأعمال
التي تعهد إليه فيها وتأمره بأدائها ، قالوا فأشفق عليه صاحب ورثى له ،
فأشار عليه أن يطلقها لينجو بنفسه من هذا العناء ، فطأطأ الرجل رأسه
ثم رفعه وقال : « ولكن متى أطلقها ؟ لا أرى وقتى يتسع لهذا . »
كذلك أنا - أنا زوج الحياة الذى لا يستريح من تكاليفها - أقوم
من النوم لاكتب ، وأكل وأنا أفكر فيما أكتب ، فالتهم لقمة واخط
سطراً أو بعض سطر ، وأنام فأحلم انى أهديت إلى موضوع ، وأفتح
عيني فإذا بى قد نسيته فأبتسم وأذكر ذاك الذى رأى فى منامه أن رجلاً
جاءه فنقده تسعة وتسعين جنيهاً فأبى إلا أن تكون مائة ، فلما انتسخ الحلم
ورأى كفه فارغة عاد فاطبق جفونه وبسط راحته وقال : « رضينا فهاى
ما معك . »

واشتاق أن الالعاب أولادى فيصدن أن الوقت ضيق لا ينفسح للعب
والعبث وأن على أن أكتب ، وأرى الحياة تزخر تحت عيني فاشتيت أن
أضرب فى زحمتها وأسوم سرحها ولكن المطبعة كجهم لا تشجع ولا تميل

قولة « هات » وأكون في المجلس الحالى بحسان الوجوه رفاق القلوب
وبكل من كان يتحسر مهيار على مثلها ويقول :

آه على الرقة فى خدودها
لو أنها تسرى إلى فؤادها

فأشرد عنهم وأذهل عن سحر جفونهم وأروح أفكر فى كلام أكتبه
صباح غد ؛ وأشرب فلا أسهو ، وأضحك فلا أرائى الهو ، ويضيق صدرى
فأتمرد وأخرج إلى الطرقات أمتع العين بما فيها مما تعرضه الحياة ، فإذا بى
أقول لنفسى أن كيت وكيت عما تأخذه العين يصالح أن يكون موضوع
مقال ، فأقنط وأكر راجعا إلى مكتبى لأكتب ... وهكذا كأنى موكل
بفضاء الصحف أملؤه ، كما كان ذلك الشاعر القديم المسكين موكلا بفضاء
الله يذرعه .

وشر ما فى الأمر أن يحى إلى صديق فيقول .. أقترح عليك أن
تكتب فى كيت وكيت ، وتحاول أن تفهمه أن كيتا وكيتا هذين لا
يحركان فى نفسك شيئا ولا يهزان منها وتراً فلا يفهم ، لأنه — على
الأرجح — يظن أن الكتابة لا تكلف المرء جهداً ، وأن القلم هو الذى
يجرى وحده بما يقطر من مراغفه وأن العقل والفس لا دخل لهما فيما
يخطه .

وإذا ظلمت أكتب وأكتب هكذا فإذا يكون ؟ لا أقول لى
سأفلس ، فإن الحياة لا تنفك أبداً جديدة فى رأى العين والعقل وهى
لا تزال تسفر كل يوم عما يحرك النفس ، ولكنى خليق أن أجن ...

نعم وماذا عسى أن يكون آخر هذا النصب ؟ ودع الجنون فلو كان
إنسان يحن من كثرة ما كتب لكان عنواني قد تغير منذ أعوام عديدة ،
ولكن تعالى نجر حساباً صغيراً نسقط منه كل ما ليس بالأدبي .
أنا أكتب في الأسبوع مقالين ، فجملة ذلك في العام تبلغ المائة وكل
مائة مقال تملأ خمسة كتب كهذا ، فسيكون لي اذن بعد عشرة أعوام —
إذا ظلت هكذا — ثلاثون كتاباً غير ما أخرجت قبل ذلك ، أى أن
كتبي أنا وحدي تملأ مكتبة صغيرة يجد فيها القراء ما يشتهون ولا يعدمون
منها متعة أو سلى ، وصاحبها لم يستفد إلا العناء .

والبلاء والداء العياء أن تكتب مرة مقالة فكاهية ، والطامة الكبرى
أن تكون المقالة جيدة ، وأن تكون الفكاهة فيها بارعة . لا أمل لك بعد
هذا أبداً . . . لأن الناس يذهبون ينتظرون منك بعد ذلك أن تطرفهم
بالفكاهات في كل مقال آخر . فإذا أخطأوا عندك ما يطلبون من الفكاهة
فالويل لك ، وأنت عندهم قد أضيفت أو ضعيف لا تحسن أن تكتب ،
أو غير موفق فيما تحاول ، حتى ولو كنت تكتب جاداً ولا تحاول أن
تمزح أو تتفكك . والناس معذورون ، فإن وطأة الحياة ثقيلة ، وما
دمت قد عودتهم أن تسليهم وتضحكهم أو أطعمتهم وأنشأت في نفوسهم
الآمل في هذا فإذا تريد أن تتوقع ؟ ولكن الناس أيضاً خلقاء أن يذكروا
أن الحياة قد تكون ثقيلة على الكاتب ، وأنه لعل في نفسه جرحاً وفي
صدره قيحاً ، وأنه عسى أن يكون ممن يودون لو يضحكون ويضحكون
غيرهم ، ويتمنون لو استطاعوا أن يجعلوا الدنيا جنة رفاقة البشر ولكن
هموماً تحم على الصدور تقلص الوجه وتطفى لمعة العين وتحبس البشر

الذى يريد أن ينطلق وترد الضحكة التى كانت تهم أن تفرقع .
 لقد صدقت فيما كتبت به إلى صديق على صورة لى .
 أخوك إبراهيم يا مصطفى
 كالبحر لا يبدأ أو يستريح
 كالبحر حى الموج يقظانه
 لكنه من نفسه فى ضريح
 من حوله الشيطان لا تنثنى
 تحبسه دون انسياج الفتوح
 خلت من المعنى لحاظ له
 وكانت البرق المضى المليمح
 حواء يا أماء أنت التى
 أورتتنى هذا البلاء الصريح
 كم آدم أخرجت يا أماء
 من خلده ، بعد أينا الطليح
 الخ الخ الخ .

وكما أن «صندوق الدنيا» القديم كان هو بريد « الفانوس السحري »
 وشريط « السينما » وطليعتهما ، كذلك أرجو أن يقسم لصندوق هذا أن
 يكون — فى عالم الأدب — تمهيدا لما هو أقوى وأتم وأحفل . ولين غيرى
 القصور ، فقد أضنانى قطع الصخور ، وتفتيت الوعور ...

إبراهيم عبد القادر المازنى

شدوذ الأدباء

الناس متفقون على أن الأديب على العموم، والشاعر على الخصوص، صنو المجنون ونده وقرينه، وقد لا يقولون ذلك بالسنتهم ولكنهم يقولونه بسلوكهم نحوه، فهم يفرضون فيه الشدوذ عن المألوف ويتوقعونه ولا يستغربونه ويحملون كل ما يصدر عنه على هذا المحمل ويردونه إلى هذا الأصل عندهم، وليس في هذا إكبار منهم له، فانه بسبيل من سلوكهم نحو صنوف الملتائين الذين يطلقون عليهم وصف « المجاذيب »، كلا الفريقين مقبول عندهم على التسامح والعطف والمرثية، ولو أن الناس رأوا رجلا يلبس ثيابه مقلوبة، أو يمشى على رأسه وقيل لهم انه شاعر لاقتنعوا ولبطل العجب، كان المشى على الرأس شيء يوائم الشاعرية أو هو مما تستلزمه حين يزخر عباها ..

عرفني مرة احد الاخوان باثنين من الاعيان كانا معه في مجلس فكان مما وصفني لهما به اني شاعر فابرت اساريهما وغمر البشر وجهيهما واستغنيا عن « تشرفنا » واعتاضا منها « ماشاء الله » و(سبحان الفتاح) واقبل على أحدهما يربت لي ظهري ويمسحه لي بكف كمضرب الكرة ويقول: « اسمعنا شيئا » كأنما كنت مغنيا على الرابة، ولو اني كنته لاستحييت أن اجيبهما إلى ما طلبا على قارعة الطريق ولشد ما خفت — وهما يلحان على — أن يمد أحدهما يده إلى بقرش ..

وقد يتفق لى أن أكون مع جماعة من الاخوان فافضى بالملاحظة
أو الفكرة أحسنى وفقت فيها وكشفت عن أستاذية وبراعة ودقة
فلا أكاد أفرغ منها حتى أسمع من أحدهم أن هذا « خيال شاعر » وليته
مع ذلك يعنى شيئا سوى الفوضى والهلديان وقد أسكت وأشغل نفسى
عنهم بشيء أفكر فيه فانتبه على التغامز .

والبلاء والداء العيام أن المرء يتحرى أن يجعل سلوكه مطابقاً على
أدق وجه للعرف والعادة فى كل صغيرة وكبيرة فلا يرى أن هذا يزيد
الاشذوذ فى رأيهم . كان هذا الشذوذ المفروض فيه يبيح لهم أن يشذوا
هم معه . كنت ليلة مستغرقاً فى النوم — ولعلى كنت أغط أيضاً . وإذا
بالباب يقرع كأن الواقف به قد استقر عزمه على تعطيله ، ففزعت وقت
إلى النافذة أسأل عن هذا الطارق فقال فلان . لخل العجب والحيرة
على الفزع ، ولم يكن فلان هذا ممن أتوقع زيارتهم فى النهار فضلاً
عن الليل ، وفى الصيف فضلاً عن الشتاء يبرده القارس ومطره المنهمر
وكانت الساعة الثانية بعد نصف الليل ، فلولا دهشة المفاجأة ولجاجة
الرغبة فى الوقوف على سر هذه الزيارة المزعجة لقدفته من النافذة بكل
ما فى الغرفة من أحذية ومعدّات بل لفككت السرير وهشمت له رأسه
بأعمده — من النافذة أيضاً . فقد كان فوق ذلك كله من أقل خلق الله .

ونزلت إليه والمصباح فى يدي وفتحت الباب ووقفت فى مدخله
« حجر عثرة » فى سبيله وبودى لو أستطيع أن أكون « حجر منية » لجرى
بيننا هذا الحديث :

هو — ليلتك سعيدة .

أنا — مصححاً — نهارك سعيد

هو — آه صحيح .. نهارك سعيد . هل كنت نائماً ؟

أنا — نائماً ؟ وماذا كنت تظننى فاعلا غير ذلك ؟ اكنت تتوهم

أننى هنا حارس ؟

هو — ها ها .. ها ها ها ..

أنا — ها ها ؟؟ ماذا تعنى بهاهاك هذه ؟ ألا تشعر أن من

واجبك أن تبين لى السبب فى ازعاجى فى ساعة كهذه ؟ ألا ترى

أن ها ها التى تملأ بها طباق الجولا تكنى وأن خيرا لك أن تضم

فكيك قليلا وتكلم بلغة مفهومة ؟

هو — لقد كنت أظن انك ...

أنا — كنت تظن ماذا ؟

هو — وعلى وجه ابتسامة جماعته كجمجمة الميت — لم يخطر

لى والله أنك نائم .

أنا — بصوت هادى ولهجة مرة — ولماذا بالله ؟

فتذك الجواب على هذا وقال :

— لست استغرب أن تتركنى واقفاً بالبواب فى هذا البرد وأن كنت

قد قطعت اليك أربعة كيلو مترات مشياً على قدمى ، فإن لكم معاشرة

الشعراء لا طواراً وبدوات غير مأمونة .

فأطار صوابى تحميلة اياى اللوم على ذنبه ولم أعد أحفل أهو أقوى

منى أم أضعف فقبضت على عنقه وصحت به
— لقد كان ينبغي أن تمشى إلى جحهم . وسأدفنك حيا إذا رأيتك هنا
ليلا أو نهارا أسمعك ؟

ودفعته عنى فانطلق يعدو كالقنبلة

وثم من يرانى أنسى شيئا أو أضعه فى غير موضعه أو أهمل أمرا
أو أطيل الصمت أو أفعل حتى ما يفعله الناس ... أكل أو أشرب أو
أنام ، ألا أحالوا على الأدب وتخيلوا فيما أنا فاعل أو تارك شذوذا
ملحوظا حتى ضقت ذرعا بهذه الحال وصار وكدى أن اقنع كل من
يتيسر لى اقناعه أنى لست بالاديب ، وإن قرض الشعر لم يكن منى
الا لهوا وتسلية — وعسى أن اكون افلحت فليس امض للانسان من
أن يرى الناس يعدونه غير مسئول

الصغار والكبار

قلت لابني عصر يوم - وفي نيتي أن أزجره زجراً قويا عن العبث بكل ما تصل إليه يده - «أحب أن تخرج معي اليوم ؟» وسبقته إلى الباب الخلفي المفضي إلى الصحراء وقلبا كنت استصحبه لتعذر السير عليه في الرمال ، فرمى الكرة ومضى يعدو خلفي ليلحق بي . فلما اطمأن بنا السير شرعت استقصي معه ما يعلم وما يجهل وما ينبغي أن يعلم ، وكانت خلاصة دفاعه - بألفاظي أنا لا بألفاظه هو - أنه يكلف العلم بأشياء عديدة يجد عسرا في فهمها وإدراكها ، مضافاً إلى ذلك أنه لا يدري كيف يمكن أن تغنيه هذه المعارف التي يطلب منه الإلمام بها ، وإن كثيراً مما يشتهي أن يعرفه ويلذ له ويمتعه أن يحيط به ، لا يجد من يده له عليه هذا فيما يتعلق بالعلوم والمعارف ، أما من حيث السلوك والسيرة ، فالمسألة أدق والمشكل أشد تعقداً ، ذلك أنه لا يزال يلقي - في المدرسة وفي البيت - أن للخير والشر آثارا ونتائج تحيره جدا حين يتأملها أو يحاول أن يردّها إلى أسبابها ، مثال ذلك أنه غافلنا مرة واقتطف من الكرمة عنقودا اضطره اقتطافه إلى المخاطرة بالتسلق ، وأكله ، ولم يكتفى أنه كذب حين سئل في ذلك فقال - أن العنب كان يشب إلى فمه . ومن العجيب - في رأيه هو - أنه كان في ذلك اليوم أصح وأنشط وأنه لم يصبه سوء ما وأن

الله لم يعاقبه لا على الكذب ولا على أكل العنب خلصة ، ولا على الخطأ في كظم معدته وإدخال طعام على طعام . ولم أكن أتوقع من ابني هذه المحاضرة التي باغتني بها وعارض لي فيها الواقع بما في الكتب وما على ألسنة المربين ، فحرت ولم أدر ماذا أقول له . وتحال العزم على تأنيبه وألفيتني أفكر في الطفولة وطبيعتها ، وفيما نمنسخ به هذه الطبيعة بما نحاول من إكراهها عليه وصبا فيه ، ثم تملكني روح العبث الذي أنكره عليه والذي كنت أهم أن أزجره عنه ، فقعدت على الرمل واقعدته أمامي وقلت له بعبارة أقرب من هذه إلى مستوى إدراكه .

« أسمع . إني أفكر الآن في تأليف كتاب على نمط جديد ، كتاب مدرسي ولكنه يخالف كل ما في المدارس من الكتب ، كتاب لذيذ ممتع جدا ، ولكنني لا أستطيع أن أضعه وحدي ، بل لابد لي من معين فما قولك في معاونتي ؟ هل تقبل أن تشاركني في تأليف هذا الكتاب ؟ »
فنهض إلى ركبتيه وأقبل على وجهي يربت لي خدي بكفيه الصغيرتين ويسألني وهو يضحك :

« يا بابا ماذا تقول ؟ »

« أقول إني أريد - بمعاونتك - أن نصلح هذه الدنيا التي نراها - أنا وأنت - مقلوبة ؟ »

قال « وكيف تفعل ذلك ؟ وكيف أساعدك أنا ؟ وماذا يسعني ؟ »

قلت « يسعك شيء كثير جدا ، فليس كونك صغيرا بمانع أن يكون

لك عمل كبير . ولكن لا تربكنى بكثرة الاسئلة ، وخير لنا وانجح
لقصدنا أن نتقصى الموضوع على مهل . ويجب قبل كل شيء أن أكون
واثقاً من استعدادك للمعاوطة ومن أنك ستفكر تفكيراً جدياً فيما يستقر
عليه رأينا ،

فتعهد لى بذلك . فقلت له

« أليست شكواك أن الكبار من أمثالى .. »

« ليسوا من أمثالك يا بابا . »

« حسن - أليست شكواك أن الكبار - غيرى - لا يحسنون تعليم
الصغار أمثالك ؟ »

قال نعم

قلت ماضياً فى كلامى - « وأن الكبار يلزمون الصغار سلوكاً يبدو
للصغار غير معقول ويعاملونهم معاملة يمكن أن نسميها غير عادلة ؟ »

قال « نعم . وأنا أقول لك - لماذا ينبغي دائماً أن أنام فى الساعة
الثامنة ؟ لماذا لا يسمح لى بالسهر أحياناً مع الكبار إلى أن أحس بالحاجة
إلى النوم ؟ وإذا لم أنم كما تريد جدتى - حتى فى النهار - فانها تقول لى
إنى ولد عنيد . »

قلت « هذا صحيح وإذا اتفق أن دار أمامك حديث وبدأ لك أن
تقول كلمة كغيرك من الجالسين ، زعموا أن هذا منك قلة أدب وسوء
سلوك » أليس كذلك ؟ »

فهز رأسه مرات وهو لا يستطيع النطق من الاغراق في الضحك ومضيت
أنا في ملاحظاتي التي شاقته وأعجبه وأرضته فقلت :

« وإذا رأوك تلعب بالكرة قالوا لك انك شقي وأن اللعب بالكرة
غير محمود ، وإذا سكت ولم تلعب ولم تتكلم ، زعموا انك سيء
الطبع ، أو ادعوا انك مريض وسقوك على كره منك ملء فنجان من
زيت الخروع .. »

فقاطعتي متمماً لي ملاحظاتي :

« وإذا كانوا يبحثون عن شيء ولا يجدونه ظنوا اني أنا الذي خبأته
ثم إذا وجدوه حيث وضعوه نسوا أنهم هم الذين فعلوا ذلك واتهموني
أنا ، وأجادهم وأبين لهم أن لا دخل لي في ذلك كله فيختمون حوارهم
معي بأنهم تعبوا من الكلام معي كأنني أنا لم أتعب أيضاً من سماع
كلامهم »

فقلت بدوري مقاطعاً :

« وإذا كسروا قلة أو كوباً لم يسألوا عيونهم لماذا لم ترها كأن
عيونهم ليست مكلفة أن تبصر شيئاً أبعد من أنوفهم ، بل راحوا
يتساءلون عن وضع القلة هنا كأن واضعها هو المسئول .. »

قال « أما إذا كسرتها أنا فالويل لي من شيطان يجب أن يحبس
في غرفته منفرداً »

قلت « وإذا كلفوك أن تأتي بشيء ولم تجده لأنه ليس في المكان

الذى بعثوا بك اليه ، أو لأن شخصاً نقله ، فانك تكون فى رأيهم ولدا خائباً وغيباً لا يفهم »

قال « وانا دائماً المخطئ وهم أبداً على صواب حتى صرت وانقأ انى لا يمكن أن أكون مصيباً فى عمل أو قول ، وهذا يحيرنى جداً ويربكنى يا بابا »

قلت « اظن الآن أن موضوع الكتاب صار واضحاً ظاهر الحدود بين المعالم ، وسنقلب فيه المسألة ونجعل الصغار هم العقلاء الحكماء الذين لا يخطئون أبداً ، والكبار هم الأغبياء البلاء الذين لا يصيبون والذين يحتاجون إلى الرقابة والإرشاد والتأديب والزجر . »

فطار الغلام من الفرح ووثب إلى رجله وانهاى على تقبيلها وألح على بالسؤال - « اصحيح ما تقول يا بابا ؟ »

« قلت ، نعم . وسنسميه (المختار فى تهذيب الكبار) ونجعل الصغار هم الذين ييقون فى البيت لتدبير شئونه ، والكبار هم الذين يذهبون إلى المدرسة ولبسهم ما يلبس التلاميذ والتلميذات الآن من البذلات القصيرة ونقص لجدتك شعرها ونخرجها فى قبعة من قبعات البنات الصغيرة ونضع لها على صدرها (مريلة) ونبعث بها إلى المدرسة ، وإذا لم تحفظ دروسها عاقبناها بالوقوف ووجهها إلى الحائط ، وإذا أكثر من اللعب حرمانها الجلوى وإذا لم تتم فى الساعة الثامنة عدناها سيئة الخلق عنيدة ولم نخرج بها للرياضة فى يوم الجمعة . »

قال « ويجب أن نحرم عليها اللعب إلا مع لداها من الجدات نظائرها

وإذا وجدناها تلاعب واحدة من الشوب عاقبناها بالحبس في غرفتها
وإذا جلست ساكنة أو لم تتناول طعامها بإقبال أمنّاها في سريرها
وجرعناها ملء كوب من زيت الخروع وإذا كرهت طعمه أو تفرّزت
من مذاقه قلنا لها أنه يفيدها وإنّا نحن نعرف ما يصلح لها وما لا يصلح
وإذا جلست معنا واشتركت في الحديث انتهرناها بنظرة ، فإذا لم تكف
أفهمناها أن الكبار لا يصح أن يقاطعوا الصغار ... »

قلت : « وإذا سألتنا - أعني إذا سألت الصغار - عن شيء نجعله قلنا
لها أن هذا الأمر لا يستطيعين فهمه وإدراكه الآن والسيدة المهدبة
يجب ألا تكثر من الأسئلة أو تحشر أصابعها فيم لا تفهم . »
قال « وإذا أكلت من الشيكولاتة أكثر مما يوافقها لم نأخذها إلى
السينما وحرمانها مناظر شارلى شابلن وأضرابه . »

ثم رفع إلى وجهه وقد بدت عليه أمارات التفكير الجدى وسألني .

« ولكن هل نسمح لها بالاختلاط بالرجال وملاعبتهم ؟ »

قلت « بقدر . وعلى أن يكون لنا - أعني للصغار - حق المراقبة
والتدخل إذا وجدنا أن الضرورة تقتضي ذلك . »

قال : « والدروس التي نتلقاها الآن ألا يتغير منها شيء ؟ »

قلت « أكثرها يبقى كما هو ، ولكن الموضوع من كتب المطالعة
والمحفوظات يتغير لأنه في الأصل مجعول للأطفال ، وهذا يعود بنا إلى
مشروعنا ، فإن الذي أفكر فيه وأريد منك أن تعينني عليه ، هو كتاب

يحتوى طائفة متخيرة من القصص والموضوعات يتعلم منها الكبار آداب السلوك وما لهم وما عليهم فى الحياة ، والواجبات المفروضة عليهم نحو الصغار أولياء أمورهم ، ولذلك ينبغي أن يلغى من الكتب أمثال (سمير الأطفال) و (القراءة الرشيدة) للأطفال فانها جميعاً لاتصلح لمشروعنا .

قال : « ومن يؤلف هذه القصص ؟ »

قلت : « أنا وانت ، ولسنا نحتاج إلى تعب كبير لأن الامر لا يتطلب فيما أقدر إلا تحويراً قليلاً يجعل القصة للكبار بدلا من الصغار ،

قال : « وهل نطبع الكتاب ونبيعه ؟ »

قلت : « ولم تتكلف وضعه إذا لم نطبعه ونبيعه ؟ »

قال : « وهل يشتريه الكبار ويقرأونه ؟ »

قلت : « إذا لم يفعلوا فان فى وسعى أن أوعز إلى نفر من أصدقائى بأن يحملوا فى الصحف على الكتاب حملة عنيفة ، وبأن يصفوه بأنه مخالف للآداب ومناف لكل ما درجت عليه الانسانية ، وهذا وحده كفيل بترويجه »

قال : « وهل كل ما يخالف الآداب يطلبه الناس ؟ »

قلت : « لا أستطيع أن أقول نعم أولا ، ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن حب الاستطلاع يدفع الناس إلى طلب هذا الكتاب الفريد فى بابهِ . »

قال : « وكيف تقرأه جدتي وهي أمية ؟ »

قلت : « ان الأمية الفاشية بين الكبار من أمثال جدتك بما يسوغ مشروعا ويجعله ضروريا ، أليس الواقع الآن في الأغلب والاعم أن الجبناء هم الذين يتولون تربية المتعلمين أمثالنا أو توجيههم في الحياة واختيار ما يصلح لهم ، والأمريبنقى أن يكون على تقيض ذلك » .

قال : ولكن إذا لم نحسن تدبير المنزل أو إذا لم تجد الصغيرات مثلا طهى الطعام وتدمر منه الكبار ؟ »

قلت : « لن يعوزنا كلام نسكتهم به كما يفعلون بنا الآن ، وما علينا إلا أن نتهنهم بالبطر والتدلل القبيح ونزجرهم عن ذلك »

فضحك وقال : « إنك ماهر جدا يا بابا ، ولا بد أن يكون الكبار قد ضايقوك جدا فى صغرك فأنت الآن تريد أن تنتقم منهم » .
ثم ألقى إلى نظرة خبيثة وهو يسأل « هل كان أبوك ثقيلا يا بابا ؟ »
فتماسكت بجهد وسألته بدورى :
« ثقيلا مثل من ؟ »

قال : « لا أعنى مثل أحد ولكنه سؤال فهل أخطأت فيه ؟ »
قلت « كلا ولم يكن أبى ثقيلا فيما أذكر ، وعلى أنه لم تتم له معى فرصة كبيرة لذلك ، فقد مات وأنا صغير » .

وهنا رأيت أن الأحزم أن نعود مخافة أن يسترسل فى مثل هذه

الأسئلة المخرجة ، التي جرها على التبسط معه في هذا الموضوع والأطفال
— كما يعرف ذلك من كابدهم — لا يستطيع المرء أن يتمكن بما يجري
في رؤوسهم أو يعرف ماذا يتوقع منهم فإن لهم وثبات غير مأمونة .
فنهضت وطلبت منه أن يفكر في الموضوع ، وبينما كنا عائدين
سألني فجأة .

« وانت يا بابا هل نضعك مع الكبار أم مع الصغار ؟ »
فدفعت الباب ولم أحر نطقاً .

الحقائق البارزة في حياتي

تمهيد — حدث منذ عامين ، أو نحو ذلك .. ان حومت الجريدة التي كنت أتولى رئاسة التحرير فيها ، حقاً ، ولا داعي هنا لبيان الموضوع فقد مضى أوانه ، وليس هذا على كل حال محله ، فكتبت على أثر ذلك مقالاً قوياً — أو لعل الأصح أن أقول إنه عنيف — نقلته صحيفة فرنسية بنفسه ونصه ، وبعد يوم وجدت على مكتي بطاقة (دكتور) يرأس صحيفة نمسوية وكلاماً في ظهر البطاقة حسبته في أول الأمر ألمانيا ثم قيل لي إنه فرنسي ثم تبين إنه انجليزي فاقتنعت ولم أواصل البحث مخافة أن يتضح إنه عربي وأوجز فأقول اني استقبلت الزميل الفاضل في مكتي في الساعة التي اتفقنا عليها تليفونيا . ولم يتجاوز الفرق بين ما فهمته انا وما فهمه هو أربع ساعات لا أكثر ، فكنت أنا جالساً أمام مكتي في الساعة الثالثة مساءً ووافاني هو في الساعة السابعة مقدماً بين يديه اعتذاره من حضوره قبل الموعد بنصف ساعة ، ودار الحديث بيننا فأفصيت إليه بحجاب ما اعتقد مخلصاً إنه سألتني عنه وبايضاح ما أشكل عليه فهمه من موضوع الخلاف السياسي ومواقف الأحزاب في ذلك الوقت وما إلى ذلك مما يتصل به من قريب أو بعيد، واعتقدت إن الأمر انتهى عند هذا الحد ولم يخالجنى شك في أن الله أرحم من أن يبلوني بحديث آخر ، ولكن المقادير جرت لسوء الحظ أو لحسنه ، بغير ذلك

فعاد الدكتور الفاضل يرجو منى شيئاً آخر لا أقل من أن اتفضل عليه
بترجمتي أو تاريخ حياتي وكان الدكتور أظرف وأكبر من أن أرفض
له طلباً ، ولكن تاريخ حياتي !!... تصور هذا ؟ فأحلتة أولاً على
ترجمة كنت قد كتبتها منذ سنوات تمهيداً لمختارات من شعري وقد نشر
ذلك كله في كتاب « شعراء العصر » ولكنه اعتذر وقال إنه فهم من
كلامي إن الترجمة مكتوبة باللغة العربية وإن الكتاب مطبوع في سوريا
ووقته أضيق من أن يسمح له بالسفر إلى ذلك القطر وإن كان لا شك
عنده في إنه لو تيسر له السفر لآلني الترجمة التي أشير إليها وافية بالفرض
ثم تفضل فذكر لي أنه علم من بعض من اتصلت أسبابه بأسبابهم من
المصريين اني من رجال المدرسة الحديثة في الادب وإن هذا هو الباعث
له على الالاحاح علي في الرجاء أن أوافيه بترجمتي فسرني هذا ورأيت فيه
فرصة لانتشار اسمي إلى ما وراء مصر واستفاضة ذكرى علي السنة
الغريين . وتوقعت بعد أن أجيبه إلى سؤاله أن يتقدم إلى واحد أو اثنان
أو ثلاثة من ناشري الكتب في أوروبا يطلبون السماح لهم بترجمة كتيبي
وإذا عثا في العالم الغربي ، فلا يعود المازني بعد محتاجاً إلى وظيفة ثقيلة
مضنية كرياضة التحرير في صحيفة يومية . ففركت يدي مغتبطاً وقلت له
اني طوع أمره ورهن مشيئته ولكن بي حاجة إلى يوم أو يومين اجمع
فيهما الحقائق البارزة وأحضرها إلى ذهني استعداداً للاجابة وفي اليوم
المعين تلاقينا فدار بيننا الحديث الآتي :

هو — إلى مستعد ياسيدي . تفضل .

أنا — أرجو أن تغفر لي لهجة الزهو التي قد تحسها من كلامي

ولا شك أن التواضع فضيلة ولكن الحقيقة أسمى وأجل . أليس الأمر كذلك ؟

هو - بلا ريب

أنا - والحقيقة انى من بيت قديم عريق جداً يستطيع أن يحدثك عنه آلاف من الناس لو كلفت نفسك سؤالهم .

هو - لا شك عندى فى ذلك يا سيدى (وانحنى لى)

أنا - وأنتم معشر الأجانب تشمخون علينا بأنوفكم كأن بلادكم هى وحدها التى تعرف الارستقراطية لأن فيكم من يستطيع أن يعد عشرة أو عشرين من الجدود . ولعل أكثرهم كان من الفتاك وقطاع الطرق . فأنا فى مقدورى أن أتلو عليك أسماء مئات من الجدود لا عشرة ولا عشرين ليس من بينهم إلا من هو مستفيض الذكر . ولن تجد اعتق من هذا النجار ولا أعرق من ذلك الفخار .

هو - أه ؟

أنا - نعم يا سيدى فإن جدى الأعلى رجل لا شك عندى فى انك سمعت به وقرأت عنه إن كنت قد قرأت شيئاً .

فبدا عليه الاهتمام ورفع سن القلم على الورقة ومنحنى أذنه - واحترامه أيضاً - وقال وقد رأى سكوتى ريثما يتم أهبطه (انى مصغ) .

أنا - وهو لا أقل من آدم نفسه .

فوقع القلم من بين أصابعه وهوت يده إلى جانبه وخيل إلى لحظة
أنه سيسقط عن كرسيه عجزاً عن احتمال كل هذا المجد وسرني أن
أرى فعل كلامي في نفسه ، ولكنها لم تكن سوى لحظة ثم نهض فجأة ومد
إلى يده قهضت مثله ومددت له يدي وقد ظننت أنه سيستأذن غير أنه
خيب أمل وقال :

فهزرت يده سروراً بهذه القربي وقلت :
هو — لي الشرف يا سيدي بأن أقول لك اني أيضاً أمت إلى
هذا الشيخ الجليل بسبب ، وتحقيقاً لذلك أقول إن جدتي العليا حواء
فنحن أذن قريبان .

فهزرت يده سروراً بهذه القربي وقلت :
أنا — لقد سهلت على الأمر جداً فأظن بك — وانت غصن من
هذه الذوحة القينانة — إلا أنك تعرف كيف كانا في الجنة وماذا
أخرجها منها وكيف قتل جدي قايل جدي هايل وإن كانت الكتب
تقول إن أحدهما مات ولم يعقب ولداً ، وأظن جدك القليل ، وغير ذلك من
الحوادث البارزة التي لا تزال طبقة ترونها عن طبقة وجيل يتلقفها من
جيل إلى يومنا هذا ، فلنمض إلى من هم أقرب إلينا .

هو — ان أسرتنا الكريمة أشهر من أن تحتاج إلى تعريف فأرجو
ألا تجشم نفسك ..

فلم يعجبني أن يحشر نفسه في أسرتي بعد أن أخرجه منها ونويت
ألا أعده — فيما بيني وبين نفسي — إلا من سلاله معاتيق جدي قايل ،
بيد أنني كتمت هذا وقلت مقاطعاً له .

أنا — سأقتصر على واحد أو اثنين من مشاهير أجدادي الاقربين

لتعرف من أية أيكة كريمة خرج هذا الفرع الذى يتشرف بأن تراه
أمامك (انحناء منه ومنى) فمنهم مالك بن الرب بن حوط المازنى
وكان زعيماً لقومه وبلغ من قوته وسطوته إنه كان هو ورفقاؤه - أعنى
اتباعه - يقطعون الطريق على رعايا الخليفة ويسومون الناس ما شاؤوا
غير أن الخليفة لم يحتمل هذه المنافسة ولم يطق صبرا على هذا المزاحم
فطلبه وكان مالك قد رأى أن البلاد لم يبق بها ما يستحق أن يؤخذ فتركها
للخليفة ومضى بثلته إلى فارس حيث لم يكف عن ركوب الناس بالأذى
حتى أجرى الوالى عليه مبلغاً شهرياً فلم توافقه هذه الحياة الوديعه
فمات بعد الكف بقليل .

ومن مشاهيرهم هلال بن الاسعر المازنى كان رجلاً فيه فكاكه
عملية وكان يحاوله أن يركب الناس بالدعاية فكان يشحن سيفه القديم
ويخرج فى الظلام فإذا مر به أحد شكه بالسيف فى بطنه فيثب ثم يقع
على الأرض فيغرب جدى فى الضحك ويذهب إليه ويلطفه ويخفف
عنه حمله ، الا لقد كان مفطوراً على الفكاهة .

ومن أكرمهم أيضاً مسعود بن حرشة المازنى كان شديد العطف
على الناس والمرثية لهم فعاش عمره لا عمل له إلا اراحة أخوانه فى
الإنسانية من الابل وما يحملون ولكن حساد فضله وشوا به لعامل
الخليفة فقطع له نصفه الأعلى وعلقه فى مكان ظاهر فى سوق كبير
واتاح له بذلك ان يشرف على الناس ويتأملهم زمناً كافياً .

هو - قد اقتنعت ياسيدى بأن فرعكم انبل واشرف وبودى لوتسمحن

لى بطائفة قليلة من الأسئلة عن شخصكم الكريم مخافة إن تنسوه فى وسط
هذا العباب الطامى من المجد التليد .

فلم ارتح إلى هذه المقاطعة التى لا شك عندى فى أن الحسد هو المغرى
بها . كنت أريد أن أغمره بسيل من هذه الحقائق التى ترفع الرأس وتطيل
القامة غير أنى قدرت أن الفرصة لم تضع وانها لا محالة سانهة فقلت
له تفضل .

هو — كم عمرك ؟ إذا جاز أن اتقدم إليكم بمثل هذا السؤال .
أنا — سيكون فى اغسطس المقبل — فى ٩ اغسطس —
عشرين سنة .

هو — كيف ؟ عشرون سنة فقط .

أنا — نعم ؟

هو — وهل تسمح لى أن أسألك فى أى سنة ولدت ..

أنا — إذا لم تخفى الذاكرة فأنى ولدت فى سنة ١٧٩٠ ميلادية .

هو — ١٧٩٠ ؟؟ كيف يكون هذا ممكنا ؟

أنا — لا أدرى وهذا بعض ما أعجب له ؟

هو — ألم تقل أن عمرك عشرون سنة ؟

أنا — نعم .

هو — ولكن عمرك — إذا حسبناه من تاريخ ميلادك — يكون
مائة وستا وثلاثين سنة فكيف تعلل هذا التفاوت ؟

أنا - لا اعلله . وكثيراً ما عجبت له . وإذا كان هناك تفاوت فلا شك ان مرجعه إلى انه فاتني ان ادون هذه الحادثة السعيدة ساعة وقوعها .
ورأيت فرصتي سانحة فاغتنمتها لأكر إلى مجد اجدادى فقلت .

انا - ازيد على ذلك انى ولدت بغير اسنان ، فأنا لهذا افضل كثيرين من الآدميين غير ان هذا حرمنى القوت زمنا طويلا فلبثت لا اطعم غير اللبن وهذا تعليل ضآلة جسمى واضطرارى بسبب ذلك إلى القعود عن المعالى التى كلف بها اجدادى الاماجد من امثال ابن ابى سعيد المازنى .
فقد ولد بأسنانه كاملة وكان مبطانا اكولا وغلا عظيما مرهوب الجانب وعرف له الخليفة فضله فاخصه بغرفة فى قصره واقام له عليها اثنين من الحجاب وامرهما إلا يدعاه يحشم نفسه حتى الخروج من الغرفة وان يقوماهما بخدمته فبقى فى هذا القصر مكرما مبجلا مخدوما تسعة عشر عاما ومنهم ايضا ابو هلال بن ...

هو - مهلا يا سيدى فان الرجوع إلى هذا معناه الشك فى صدق ما جاهرت به من اقتناعى بكرم محتدك ، فهل تسمح لى بأن اسألك متى اشتغلت بالصحافة ؟ .

انا - فى ١٨١٩ .

هو - كيف ؟ وعمر ك كما تقول دون العشرين ؟

انا - لا ادرى ! . وهذا ايضا بعض ما يحيرنى .

هو - ان هذه التواريخ لا امل فى اصلاحها على ما يظهر فلنسأل عن شىء آخر ، هل لك اخوة ؟ .

فاغتتمت هذه الفرصة لا طير له صوابه .
أنا - دعني أفكر ، نعم ، كان لي أخ ... في الرضاعة .

هو - ماذا تعني ؟

أنا - أعني أنه كان ابن مرضعتي .

هو - وهل مات ؟

أنا - لا أدري ؟

هو - يتأثر - اختنى فلم تسمعوا عنه خبراً ؟

أنا - كلا ! بل دفناه .

هو - دفنتموه ؟ هل تريد أن تقول أنه دفن دون أن تعلموا أحي

هو أم ميت ؟

أنا - كلا ! فما من شك في أنه كان ميتاً .

فضحك وقال : مات ودفن فإذا تريد ؟ أظن أن المسألة واضحة

جداً فإذا يحيرك فيها ؟

أنا - أظن أن المسألة واضحة ؟ ربما . أما أنا فأخالفك .

هو - لماذا ؟

لأنني لا أدري إلى هذه الساعة أينما الذي مات أنا أم هو ؟

أفهمت الآن ؟

فانطلق يقهقه كأنما كان في جوفه رعد مخزون وصبرت عليه

حتى فرغت الذخيرة ثم قلت له بلهجة غريبة مرعبة :

«هل تستطيع - إذا قصص عليك القصة وأفضيت إليك بالسر أن تنبئني
عن يحدثك الآن أهو المازني أم من كان ينبغي أن يكون خادمه وإن
كان أخاه في الرضاعة؟

فارتبك وبدأت عليه دلائل الحيرة والدهشة وعلا وجهه السهوم
فاغتبطت وأقسمت لأزيدنه ارتباكاً ولاطيرن من رأسه هذا الولع
بتراجم الناس فقلت ؟

«اسمع يا صاحبي ، لقد كان لمراضعتي طفل في مثل سني وكان شديد
الشبه بي ، وكان يلبس من ثيابي فيزيد الأمر بيننا إختلاطاً وما أكثر
من كان يتوهم أننا توأمان وكثيراً ما كان يقضي هذا الولد ليلاليه في
غرفتي على أنه أنا بينما أكون أنا نائماً مع الخادمة ، وهكذا نشأنا ، فشببت
أنا على أنني المازني وشب هو على أنه الخادم وقد يكون الأمر على خلاف
ذلك ، وما يدريني ويدريك أن الأمر لم يختلط على ظري وهي تغسلنا
في الحمام ؟ ولا أطيل . كبرنا نحن الاثنين ، المازني وخادمه محمد ، أو محمد
وخادمه المازني ، فما أدري الآن أنا من على التحقيق ؟ كبرنا إذن وسرق
الخادم مرة من الجار فحبس لذلك بضعة شهور لا أذكر عددها ، وعسى
أن يكون المازني هو الذي سرق وحبس خادمه ، ربما ، ولكن هذا
لا قيمة له ، فكثيراً ما كنت أنا أخطئ* ويضرب خادمي عنى أو بعبارة
أخرى ربما كانت اصح واقرب إلى الحقيقة ، كثيراً ما كان هو يخطئ*
واضرب أنا عنه - هذا إذا ذهبنا نعتبر الخلط الذي لعله اصاب عنوانينا
أو اسمينا .

هو - ارجو المذدرة ، ولكن هل من عادة المصريين ان يضربوا خدمهم إذا اخطأ ابنائهم ؟

انا - لست اعلم ان هذه عادة احد من المصريين ، ولكنى اريك بعض آثار التشابه بينى وبين الخادم واحتمال التصاق الاسم بغير صاحبه .

هو - ولكنى لا افهم ...

انا - ستفهم كل شيء إذا تريثت قليلا ، ولم يقلع الخادم عن السرقة والتلصص ، او لم يكف المازنى عنهما فما يعلم الحقيقة غير الله ومن لعله خلطنى به فى الحمام ونحن طفلان رضيعان ... فألف الاجرام ، واتفق فى ليلة انه كان يسطو على بيت فأحس به السكان ففر إلى السطح على نية الوثوب من سطح الى سطح وهكذا حتى يهتدى الى طريق مأمون للهبوط الى الأرض ، وبينما كان ماشياً على سور احد السطوح زلزلت الأرض فهوى ومات والآن نبئنى إذا استطعت اينما الذى مات ؟؟ اهو انا ام هو ؟ اهو المازنى ام خادمه . ؟

هو - الم يكن هناك شيء - علامة مثلاً - تميزك ؟

انا - وإذا تذكرت ما قصصته عليك عن آبائى وأجدادى الأماجد وما كانوا يتوخونه جميعاً من الأساليب لاكتساب رزقهم ، وبعبارة أخرى أخشى إذا تذكرت أنهم كانوا جميعاً بفضل الله فتناكح وقطاع طرق ولصوصاً ألا يكون الأقرب الى المعقول والأشبه أن يكون الخادم المتلصص هو المازنى واكون انا الذى وقعت من فوق السطح ومات ؟

هو - لا انكر قوة منطقك ولكني اسألك مرة اخرى - الم تكن
م علامة تميز كما ؟

انا - هل تحسبني ابله ؟ وفيم اذن قلت لك ان للسألة سرآ ؟ .
فأبرقت أسارير وجهه ولمع السرور في عينيه وقال :

لا احسبك تضن على بحل هذا اللغز بعد ان اوجعت راسي بعقده ؟ .
انا - كلا ! لقد كان هو اسود زنجياً وانا كما ترى اسمر ؟ ؟
فنهض وانحنى وقال : « اشكرك » .
ولم ار بعد ذلك وجهه .

اللغة العربية بلا معلم

وقفت مرة بباب مكتبة أتأمل معروضاتها، من وراء الزجاج فأخذت عيني كتيباً صغيراً يعلم الأجانب (اللغة العربية بلا معلم) فراعنتي هذه الجراة، وتمثل لحاظي ما يكابده الأساتذة من العناء في تدريس هذه اللغة، بل مانعاهي نحن الذين نزعم أنفسنا أدباء وشعراء من البرح والجهد ولا أظيل — اشتريت الكتاب بشمن ياهظ ثم انتحيت ركنا في قهوة ورحت أقلبه فإذا هو لا أكثر من ألفاظ ومحادثات باللغة الانجليزية وما يقابلها باللغة العربية، فتحسرت على ما بذلت فيه، وساءلت نفسي — ماذا أصنع به؟ كيف أعوض خسارتي؟

والله أكرم من أن يضيع على فقير مثلي ماله إذا صح أن تسمى القروش مالا. فألهمني أن أنتزع منه متعة لا أظن مصريا غيري حلم بها أو طمع فيها. ذلك أني فرضت - جدلا - اني (مالطي) واتخذت هذا الكتاب مرشداً لي وقلت أتقيد بجملة وعباراته في المحادثات التي اضطر إليها في تجوالي في المدينة.

ولما كنت (سائحاً) وشوارع المدينة متداخلة تفضل الغريب فقد وجب - طبقاً لمشورة الكتاب - ان أركب (عربة) وإن احتمل هذا الترف الضروري، ففتحت الصفحة الثانية عشرة حيث الحديث مع سائق

العربة ودنوت من (الموقف) واشترت بعضاً اشتريتها خصيصاً لهذه المناسبة السعيدة وصحت بلسان ماتو (أرجي) فاهلب السائق جواده وعدا إلى بهما ، فلما صار عندي عدت إلى الكتاب استوحيه الجملة الثانية التي ينبغي أن تتلو النداء، ثم رفعت إليه رأسي وقلت « روه هات أربه » .

فكانى لطمت الرجل على وجهه . فانطلق يمطرني وابلا من الكلام لم أفهمه كما هو المفروض إذ كنت غريباً عن هذه الديار ولكني تبينت من لهجة الرجل وإشاراته إن المعاني جميلة جداً وإن جملي راقته كما لم يرقه شيء في حياته .

وعدت إلى الكتاب استمليه الجملة الثالثة لعلها تحل الاشكال فقلت :

« يا أرجي انت فاضى ؟ »

فرماني بنظرة مغيط محقق لم أدر ما مسوغها ، ثم رفع طرفه وكفه إل السماء ، ثم صاح بالناس فالتف حولى منهم اثنان كلنى أحدهما بالفرنسية فبرزت له رأسي نفاطبنى باليونانية ، فظلت أهر له رأسي ، فحرب الثانى الايطالية فأشرت له بأصبعى أن لا وخفت أن يطول الأمر فرددت عليه بالانجليزية فاستغرب وجعل يرفعى ويخفضنى بعينه . وأوجز فأقولى - انى حسم للنزاع ركبت وقلت للسائق - بعد أن تجاوزت عن جملتين من الكتاب - طيب اذهب بى إلى المطبة .

فانطلقت العربة ، وبديهى انى كنت أؤثر مكانا آخر ولكنى كنت مقيداً بالكتاب ، فلما انتهينا لم أنزل وصحت به - نقلا عن مرشدى -
« كم تريد أجرة لك » .

وكان ينبغي أن يقول - طبقا للكتاب - «واحد شان» ولكنه طلب نصف ريال فدهشت وبحث في غلاف الكتاب عن تاريخ طبعه فالفيتة ١٩٢٦، فقلت لنفسى لعل الأجور ارتفعت في هذا البلد بعد صدور الكتاب، وكان على أن أناقشه كما يحتم الكتاب فقلت: «لا هذا كثير، وكان ينبغي - على ما رسم الكتاب أن يكون رده على ملاحظتى» كما في التعريفة غير إنه بدلا من أن يفعل ذلك مضى يشتمنى ويسبى ويلعن لى أبائى وجدودى وهو آمن مطمئن إلى جهلى بلغته البذيئة على الأقل. فلم أر مناصا من أن أعد لعناته مرادفة لرد الواجب ونقلت له من الكتاب «سته كروش أبيض بس»

فحسبى بلاء صحراء من اللعنات والشتائم ثم قال: «هات بقى». ففهمت هات لأنها من الكتاب وتجاوزت عن «بقى» على اعتبار أنها على الأرجح كلمة شكر أو دعاء وناولته القروش الستة البيضاء. وإذا به يشب إلى الأرض ويجذبني من جيب سترقى ويصب على من السباب ما يكنى شعباً بأسره جيلا كاملا. فما أشد اسرافه قاتله الله. وتنازعنى الضحك والغضب والخوف، ولكنى ضبطت عواطفى وصوبت عينى إلى الكتاب ثم رفعت له وجهى وقلت: «ودينى» الكشلة (١) . فقال «الكشلة؟ يا خبر أسودياناس. تعالوا انظروا هذا يريد أن يدعى

(١) الكشلة عامية ومعناها المستشفى. ولا تكاد تذكر إلا مقرونة في ذهن باليأس من حياة المريض.

انى كسرتة . . . ، وهكذا وهكذا مما يستطيع القارىء أن يتصوره ولا حاجة بنا الى وصفه .

ولم أدع أنا شيئاً من هذا ، ولا خطر لى ان افعل ، ولكنه الكتاب استوجب منى أن أذهب إلى القشلة بعد أن حملنى إلى المحطة ولا موجب لهذا ولا ذاك ولكن هكذا شاء فكان ما اراد فرايت الأحزم إن انتقل إلى الجملة التى تلى « القشلة » فقلت « طيب اعمل فسهه فى البلد » .

فلم يدر ايشتم ام يضحك . وبعد ان تأملنى قليلا قال :
« يابن . . من القشلة للفسحة ؟ »

وبينما كان هو يصعد إلى مقعده كنت انا اترجل . فالتفت إلى مذهولا ، فانقذته القروش العشرة وقلت له « لا مؤاخذه لقد كنت امزح »
فأر كيف يعتذر عن شتائمہ ولعناته . .

سأجرب فضل الكتاب فى نزوة اخرى استخلاصاً لحقى .

أشق المحادثات

محادثة الصم أشق شئ بعد محادثة النساء . إذاصح أن الرجل يتحدث أو تتاح له فرصة الكلام وهناك امرأة . والفرق بين الحالتين - أغنى بين محادثة الصم ومحادثة النساء - أن المرء في الحالة الثانية لا يزال يفتح فيه ، كلما توهم أن الحظ قد أسعفه بفرصة ، ولكنه فيما أعلم لا يجاوز التأناة أو القافأة أو غير هذه وتلك بما هو منهما بسبيل ، ولا يكاد يزيد على دأأأ ، ثم لا يرى معدى عن اطباق فيه ، وهكذا فلو أتيسر لك أن تراه وهو يفتح فيه ثم يطبقه مرة بعد أخرى - دون أن تعلم أن هناك امرأة تتحدر كالسيل - لظننته يشاء من فرط الملل والوحدة ، وشر ما في الأمر أن المرأة لا تنفك تنكر على الرجل صمته وتستعجن منه أو تعده دليلاً على أن في نفسه شيئاً من ناحيتها . وليس من الميسور أن يقول الرجل منا لأمه أو زوجته أو أخته أو لاية سيدة محترمة أن علة صمته إنها هي لا تكف عن الثثرة . كلا هذا لا سبيل اليه فان عاقبته أو خم ، فهي ورطة كما ترى لا مخرج منها .

فرص الكلام معدومة أو هي في حكم المعدومة ، والمصارحة مستحيلة والصبر على اللوم والتأنيب والالتهام عسير ، فإذا يصنع المرء ؟ توهمت

مرة أنى اهتديت إلى تعليل للصمت المفروض على والمستهجن منى فى وقت
معا . فقلت لمن كانت تلومنى :

« ألا تعلين إنى مدرس ؟ »

قالت : « وما دخل هذا ؟ »

قلت : « إذا أكثر من العمل بيدك ألا تتعبان ؟ »

قالت : « نعم ذلك .. »

قلت : « وإذا مشيت بضعة أميال ألا تتعب رجلاك ؟ »

قالت : « هذا صحيح ولكن .. »

قلت : « تمهلى ، وإذا تعبت يداك وأرجلاك فكيف تريحينهما ؟ »

قالت : « بالكف عن العمل أو المشى »

قالت : انتهينا . أنا مدرس وليس لى من عمل طول النهار لإدارة
لسانى فى خلقى ، فمن حق هذا اللسان أن يستريح بعد الجهد الشاق
الذى بذله »

فاقتنعت يومئذ ، وبعد بضعة أيام كنت جالسا معها ، صامتا كما هو
مفهوم بالبداة فذنت منى وقالت :

« اللسان يتعب ؟ اليس كذلك ؟ »

فأدركت أن وراء هذا السؤال أمرا ، وقلت :

« نعم . شأنه شأن كل عضو آخر ،

قالت : « فما لفلانه المعلبة لا تكف عن الكلام في ليل أو نهار ؟ »
والخلاصة انني اشك في ان آدم هو الذى سمي الأشياء . وما اظن إلا
ان حواء هى التى يرجع اليها الفضل في ذلك ، فما احسبها تركت له فرصة
يفتح فيها فمه ولا سيما إذا ذكرنا ان آدم كان الإنسان الوحيد الذى
كانت تستطيع ان تكلمه في الجنة ، وانه لم يكن معاسواه فكيف استطاع
ان يجد الوقت اللازم للتفكير فيما يناسب الحيوان والنبات من الاسماء ؟
بل ما اظن ان آدم قد اكل من الشجرة المحرمة لأن حواء اغرته اولاً
الشیطان وسعه ان يزين ذلك له ، بل لأن الاكل من هذه الشجرة له
عواقبه ، ومنها الموت وانتفاء الخلود وتلك وسيلة للخلاص يمكن ارتقاها
مع الصبر . فما اعظمها من تضحية يجب ان نذكرها لأبينا الشيخ المسكين !

اما محادثة الصم فشيء آخر مختلف جداً . هي صياح من جانب وبعثرة
من الجانب الآخر ، واعنى بعثرة المواضيع التى يمكن ان يدور عليها
الحديث زمناً معقولاً إذ لا سبيل إلى حصر الذهنين في موضوع واحد
وقتلهم - اعنى قتل الموضوع - ولنضرب مثلاً :

تضع يدك إلى جانب فك وتصح في اذن صاحبك .

« متى اشتريت هذه النظارة »

فينظر اليك اولاً كأنما يريد ان يقرأ في عينك او في وجهك كله
ما سمع ثم يقول بصوت لا تكاد تسمعه ولعله يحسب انه يصيح مثلك
« أى نعم وزارة المعارف »

فتصيح مرة اخرى وتصنع من كلتا يديك بونا لأذنه
« النظارة . النظارة . انا اسأل عن النظارة »
فيقول « آه . ربما . ربما . فان الازمة حقيقة حادة »
ويخطر لك ان تغير الحديث فتصب هذه الصيحة في اذنه او تطلقها
في الهواء - سيان .

« هل قرأت مقالتي الأخيرة ؟ »
فيقول « لعنة الله عليها لقد كادت تخنقنى . وقد غشنى من مدحها لى »
فتبدى امارات الدهشة وتلعنه بصوت عادى فيقول :
« لا تعجب فأنها جهة مشبعة بالرطوبة والبعض فيها كالنحل كلا .
لقد شبعت من المنيرة وسأنتقل إلى جهة اخرى »
وهكذا . تنتقل من موضوع إلى موضوع بلا فائدة حتى يسبح
صوتك . والنساء شر لا بد منه وكثير ما تنسيك حلاوته ومرارته ولكن
المرأة الصماء .. ؟ هنا يحسن السكوت .

من ذكريات الصبا — بين رجال الليل

وقعت مرة على عصابة من اللصوص ، وكنت في ذلك الوقت صبياً في الثالثة عشرة من عمري الذي أراه ينو أن يطول بلا مسوخ ، وكنت عائداً من مكان قريب من مسجد عمرو إلى الامام عن طريق الصحراء الفاصلة بينهما ، وكان الليل قد أُمسى وانتشر الظلام على الأرض ، ولم يكن شارع « كئشنر »^(١) قد شق وعبد فكان السارى لا يجد ما يهذى به في هذه البledاء المبسطة سوى النجوم إذا كان ممن يستطيعون أن يميزوا بينها. وكنت أعرف من الكتب أن هناك « دين » واحد منهما أكبر من زميله ولكنى لم أوفق إلى رؤيتهما في هذا التيه السماوى إلا منذ عهد قريب ، وكان شكى يومئذ في وجودهما عظيماً ، ولكنه شك لم اكن أدعه يند عن صدرى إلى لسانى ولا سيما إذا كان أحد من المدرسين حاضراً ، تلك جرأة كنت قد تعلمت ضبطها وكتماها بعد أن جرت على ما لا أزال — كلما تذكرت — أرى يدي ترتفع إلى خدى . وشرح ذلك إنا كنا نطالع كتاباً نسيت اسمه ، فرت بنا هذه الجملة المشهورة « أن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه » وأخذ المدرس يضرب الامثال ،

(١) شارع مهد من الامام الليث قريباً من « عين الصيرة » إلى مسجد عمرو ويمر بمدينة الفسطاط التى كشف عنها حديثنا .

فكبر في عيني هذا « المضطر » الذى يبلغ من مخاطرته ألا يركب إلا الصعب « ويتعمد ذلك » ولا يعبأ شيئاً بالأهوال التى يقذف بنفسه عليها وأعجبتنى هذه الشجاعة وملأت نفسى إجلالاً له ، فاشتقت أن أراه وعانيت من الحاح هذا الشوق أشد البرح ، فلم يكد المدرس يفرغ من الشرح — وكنت فى شغل عنه بتصور « المضطر » وتمثل « الصعب » الذى يركب — حتى وثبت عن الدرج كالقذيفة وقلت بلا استئذان :

« أفندى ! أفندى ! » .

فتغاضى المدرس عن مخالفتى للأصول المرعية وقال لى وعلى فه ابتسامة الراضى عن نفسه المطمئن إلى بلوغ غايته من الايضاح والبيان .

« نعم يا عبد القادر ؟ »

فجازيته ابتساماً بابتسام ولم أكن أقل منه رضا عن نفسى وفرحاً بالانفراد — دون بقية التلاميذ — بهذه الرغبة الملحة ، واعتباطاً بشجاعة النهوض بلا استئذان للأعراب عنها فقلت :

« أين يعيش المضطر ؟ » .

فتجههم وجهه وانزوى ما بين عينيه وطالعتنى أمارات غضب حسبها دلائل حيرة ، فاسفت لتقدمى بهذا السؤال واحراجى أياه به أمام التلاميذ وقلت لنفسى : أن معلنا هذا معذور إذا جهل مكان « المضطر » واستعصى عليه الجواب ، وإني له أن يعرف — وهو رجل عادى — ذلك « المضطر » الذى لا يبالى بالصعب ويأتى إلا أن يركبه ؟ ؟ وانتهت

من هذه المناجاة ، التي يظهر أنها طالت أكثر مما ينبغي ، على التلاميذ يدفعونني وعلى المدرس يصيح بي .

« أقول لك تعال هنا ، ألا تسمع ؟ » .

فلم ادع الا بتسام وذهبت إليه وأنا أقول لنفسي « سيعاتبني الآن على تسرعى وعدم انتظاري انتهاء الدرس لأسأله على انفراد وسيهمس في أذني عتابه فأهمس في أذنه اعتذارى وانتظر » .

« ماذا تقول ؟ » بصوت عال .

ولم يكن هذا ما توقعه فارتبكت ، وحدثت نفسي أن هذا مأزق ظريف . أرجو أن أنقذ الرجل وبأني هو إلا أن يغرق ، ورفعت له وجهي يستطيع أن يقرأ فيه إذا لم يكن أعشى ، أنى آسف وأنى مدرك خطي وكان عليه أن يخفض صوته قليلا ، ولكنه لم يحفل رجائي وتوسلي فصرخ مرة أخرى :

« ماذا تقول ؟ أجب » .

فالتفت إلى التلاميذ كالذي يريدان يقول — أسمعون هذا المجنون؟ لست ملوما إذن وأنتم شهودى . ولكنى لم أكاد أرد وجهي إليه حتى خطر لى كوميض البرق انه لعله لم يسمع سؤالي فهو يجهل مداه ومبلغ ما تنطوى عليه من الخطر على سمعته ومركزه بين التلاميذ . واستولى على هذا الخاطر فسرني أن فرصة الانقاذ لم تضع ، فشبتت عن الأرض ورأيت يمينى تمتد إلى كتفه لتدنو باذنه إلى فمي ، وإذا بي على الأرض

أقيسها إلى آخر الفصل دأثراً حول نفسي ومتخذاً رأسي محوراً ، وقعدت أبكى وبني من الغيظ والحقد أكثر مما بي من الألم ، ولكن المدرس كان قد لحق بي فكنمت الغيظ ورفعت طبقة البكاء فجأة حتى صار اعوالا ، فجعل يصيح بي .

« اخرس يا كلب اخرس . اقول لك اخرس » .

ويشفع كل كلمة بلطمة او لكمة فأزداد اعوالا .

ويظهر ان هذا الصخب نبه « الناظر » - وكانت غرفته قريبة منا - فدخل علينا وراى المدرس متلبساً بجريمة الضرب - وهي محرمة - وكان الناظر رجلاً طيباً ساذجاً يخرج الكلام من أنفه اخن اغن ممطوطالينا ، وكان صديقاً لأبي - اعنى قبل موته - وحديث عهد بالكوية ، وكانت لي عليه دالة بفضل تملق « بكويته » لا بفضل صداقته لأبي - وكان التلاميذ يعرفون لي هذه الدالة فاذا ارادوا شيئاً بعثوا بي إليه . اوفدوني إليه مره فقلت .

« يا سعادة إلبك . نريد ان تاذن سعادتك لنا في الذهاب إلى حديقة الحيوانات » فاعتدل في مقعده وهز راسه وهو يقول .

« حونات . حونات ايه يا امنى . اسد فك السلاسل نهش عيل منكم نبق .
نقول يا مين ؟؟ يا امنى عبد القادر لا »

فاقتنعت وأقتنع التلاميذ بان الذهاب إلى حديقة الحيوانات خطر ليس بعده خطر . ولا أذكر أني دخلتها إلا بعد أن صرت مدرسا في المدرسة السعيدية الثانوية وعلى مقربة منها ، وإلا بعد أن تحققت أن الأسود

تحبس في اقفاص ولا تربط بالسلاسل — أن صح أنها كانت تربط —
كما كان الحال على عهد ناظرنا طيب القلب ...

وأعود إلى المضطر ، وقصتي معه فأقول بإيجاز : أن المدرس على الرغم
من أعتدائه على وعلى القانون مثلاً في شخصي المحطم المجرح زعم أني هيمت
بصفه . يا للكذب ! . وأصر على وجوب طردى من المدرسة . ولم تجدنى
دموعى ولا ما أقسمت من الإيمان على أنى لم أرتكب هذه الجريمة
التي لم تخطر لى على بال قط ، وأنى ما أردت إلا الاستفسار عن مكان
« المضطر » ، لآراه ، وشهد التلاميذ الملاعين أنى رفعت يدى إلى كتف
المعلم ، فأيقنت أنى ضائع لا محالة ويثست فكففت عن البكاء ، وقلت :
« أتلقى هذا الظلم بما يستحقه من الاستمزاز والاحتقار . » وجرنى الناظر معه
إلى غرفته وشرع يسألنى فى هدوء وعطف فسردت عليه القصة على
حقيقتها ورأيت فرصتى سانحة فاعتنمتها وأكثر من « سعادة البك »
وأضفت من عندى كذبة صغيرة فزعمت أن المعلم شتم أبى ، وأبى كما يعلم
سعادة إلبك الناظر ميت . وفعل التلق والأكذوبة فعلهما الذى توقعت
فنهض سعادة ألبك وقال لى بصوت خفيض « أسمع يا أمنى أطرذك من باب
تيجنى من باب . فاهم ؟ . »

قلت « نعم يا سعادة البك » فركنى وخرج وأسر شيئاً إلى فراش
بينما كنت أتوئب فى الغرفة وأطوى يدى ورجلى فى الهواء من فرط
الفرح ، ثم نادانى فخرجت وبعد قليل حضر المدرس أيضاً فضى بنا جميعاً
إلى الباب الكبير — وكان هناك باب آخر — وقال : ؟

« يا عم محمد . افتح البوابة . أخرج من مدرستي . أمش من هنا .
مبسوط بقى يا عم الشيخ ...؟ » هذا للدرس .

ولا يحتاج القارئ أن أقول له انى درت ودخلت المدرسة من الباب
الثانى وأن المدرس وجدنى جالسا على درجى فى اليوم التالى ولكن القارئ
قد ينقصه أن يعلم أن المدرس عاد إلى الشكوى فقال له الناظر: « وماذا
أعمل إذا كان هؤلاء الأولاد كالعفاريت ربما كان قد هبط إلى فناء
المدرسة من فوق سطوح الجيران » .

والآن إلى اللصوص بعد هذا الاستطراد الطويل الذى دعت
إليه المناسبة العارضة : مناسبة الذكرى الاليمة .

لم أزل أغرس قدى فى الرمال واقتلعا — فإيسى المشى فى هذه
الصحراء مشيا إلا على المجاز — حتى دنوت من عين الصيرة (١)
فابصرت اشباحا على ضوء نار ، وكان الليل دامسا فلم استطع أن أكون
على يقين من مكان القوم ، وخفت ان أنا مضيت فى طريقى أن اقع
عليهم وأنا لا أعرف أى ناس هم ، وكنت أسمع أن هذه الرقعة الجذباء من
الأرض مأوى اللصوص وعش القتاك ، فقلت أميل عن الطريق حتى أبلغ
« عين الصيرة » ، فأنحدر إليها ثم أعود فأصعد على حذر ناشراً أذنى فى
الليل المحيط مرهفا سمعى لكل صوت ونأمة عسى أن أفلت ، فإذا نعذر

(١) عين متفجرة بماء أسود يستحم فيها مرضى الجلود .

الافلات عدت فوسعت الدائرة . فلما كاد رأسى يبلغ مستوى الطريق
المشرف على (العين) إذا بالقوم تحت عيني .

فأسرعت ورددت رأسى وتواريت خلف الصخرة التى كانوا
جالسين اليها من الناحية الأخرى . وجلست أفكر وقد شاع فى الرعب
وكادت عيناى تخرجان . غير أنى لم البث أن سمعتهم يغنون ويتضحكون
فعاد إلى بعض ما عذب من الطمأينة ، وتشجعت فدنوت من حرف
الصخرة وجعلت أبرز من وجهى بقدر وأخفى بقدر ، فالفيتهم على بضعة
أمتار - نحو عشرة ، منهم الضخم الهائل الانحاء والطويل والهزيل والقصير
والبدن وكان أحدهم يغنى والباقون يصخبون حوله ويضحكون ويتندرون
عليه ويركبونه بالذع أنواع المجنون . ويظهر أن هذا استفزه واحتقه
فالتقض عن الأرض ومضى يلعنهم ويقذفهم بأقبح النعوت فهموا به جميعاً
ولكن رجلاً ضخماً من بينهم حسبته فيلا صغيراً صدهم وأهاب بهم أن
(دعوه لى فانه طعاعى الليلة)

فسرت رعدة خفيفة فى بدنى ومططت وجهى لعلى أرى ذيله وراءه .
وتناول الرجل عصا غليظة تبلغ المترين أو قراب ذلك وجعل يتوثب فى
الهواء ويلوح بها فى كل ناحية ويهوى بها على الرموس حتى اذا كاد يطيرها
عن اكتافها أو يحطمها حرك يده فبرت العصا فوقهم تقطع الهواء وتقول
(فووو) والرجل يقول فى أثناء ذلك كلاماً كهذا - دعوه لى . أنه
طعاعى ! ألا تروننى ؟ انظروا إلى وراعونى أنى أنا الذى يسمونه الموت
الوحى والخراب العاجل ! أى العاصفة وأبى الزلزال وأختى الكواويرا

أنظروا إلى وراعوني . انى أفطر بقافلة وبرميل من البلح^(١) وإذا مرضت
كان حسبي ملء سلة من الافاعى . افتت الصخر بنظرة وأخرس الرعد
بصيحة . وسعوا لى وسعوا لى . الدماء شرابى وانين القتلى موسيقاى . انظروا
إلى وراعوني وعلقوا أنفاسكم فاقى موشك أن انطلق ،

فعلقت أنا أنفاسى وقد ملأ الرعب والاعجاب والسرور قلبى - الرعب
بما سمعت ورأيت ، والاعجاب بقوته وحذقه ، والسرور بما أنا موشك
أن أراه بين المتنازلين ، وحدثت نفسى أنى ساشهد منظرا لن انساء
ماحييت ، منظرا ينطوى - من دواعى الاعجاب والاجلال - على أعظم
وأهول مما ينطوى عليه ركوب ذلك (المضطر) للصعب من الأمور

ثم نهض الذى كان يغنى وكانوا يسخرون منه ، وفى يده (نبوته)
لا كما نهض نحن أبناء آدم ، بل كما يطير النسر عن الصخرة ، وهوى
على نبوته قائما على الأرض وهو معتمد عليه ببطنه وناشر يديه ورجليه
فى الفضاء طلبا للاتزان ، ثم وثب بين صيحات الاعجاب وانطلق يضرب
فى الهواء بنبوته كما صنع زميله ، ويقول كلاما كهذا :

« احنوا ظهوركم لركوبى ولا تنظروا إلى بعيونكم فتذهلوا أنى احك
جلد رأسى بالبرق ، وانيم نفسى بالرعد ، وأروح على وجهى بالعواصف ،
وإذا ظلمت مصصت السحاب وإذا جمعت سار القحط فى ركابى . وانقوا أن
تنظروا إلى فتبهتوا !! انى أحجب الشمس بكفى واقد من القمر قطعة
فينتهى الشهر ، وارتج فتندك الجبال : احنوا الظهور لاني الخوارق ! ،

(١) شراب يسكر يصنعونه من البلح

فصارت روحى فى قمى . ونهض الاول وذهباً يتوثبان ويضربان
الهواء بنبوتيهما ويصرخان كالشيطان ويتسابان ، بأوجع الكلام حتى غلى
الدم فى رأسى أنا ، وأيقنت أن الدماء ستكون أمانى بركة . ثم طير الاول
عمامة الثانى بنبوته فقلت قد صرنا إلى الجد الرائع فالتقطها الثانى بنبوته
أيضاً - وضرب عمامة الاول فأطارها عن رأسه فوقعت قريباً منى ، فخرى
الاول فى أثرها وتناولها وقال « لا بأس » دقة بدقة والبادى أظلم ، ولكن
هذا لن يكون آخر ما بيننا فغير لك أن تكون على حذر وأن تجنب
طريقى فإنى لا أصفح ولا أرحم وسيأتى اليوم الذى تكفر فيه عن ذلك
بدمك ،

فقال الثانى - أبو الخوارق - أنه مستعد لذلك اليوم وأنه ينذر الاول
من الآن ، فانه لن يستريح ولن يهدأ له بال الا اذا خاض برجليه فى دمه ،
وأنه يدعه الآن اكراما لأولاده الصغار . وهم كلاهما ان يذهب فى طريق
وكانا لا يزالان يتقاذفان بالوعيد والشتائم ، ولكن رجلا قمىء الجسم
بالقياس إلى هذين القيلين قفز وصاح بهما :-

« قفا لعنة الله عليكما من جبانين ، وإلا اطعمتكما هذه العصي » .

ولم يكذب فقد جذب كلا منهما بذراع ، جوبه ، اطعمه التراب ثم
اوسعهما ركلا برجليه حتى اشبعهما تمريناً وضرباً ، ولم تمض دقائق حتى
انقلبا كلبين ذليلين عند قدميه . فدوى الفضاء بضحكات الجالسين
وتهكماتهم وعانيت الامر من كتمان الضحك .

وبدا لى ان قد آن ان افكر فى الرجوع والهروب من هذه الجيرة

ولكن احد الذليلين - واحسبه ابا الخوارق قام ليغسل وجهه ويديه في العين فرانى فوقف وصاح « هوا من هذا ؟ » ووثب الباكون فكانوا حول فى اسرع من لمح البصر ، وقبل ان افكر فى جواب . وتصايحوا بى فقال الاول :

- ماذا تفعل هنا ؟ قل والاغرقناك فى العين
وقال الآخر :-

- شدوا رجليه ومزقوه !

وقال ثالث :

- لص بطربوش اهاها ! تعال نعليك : هاتوا الفرشاه لندهن له وجهه
باللون الازرق السماوى من فرعه الى قدمه
فضحكوا جميعا وقالوا « فكرة بديعة غير ان الرجل القمىء
الذى مرغ الفيلين فى التراب صدمهم جميعا وقال :

- انه ليس الا طفلا ؟ ارفعوا عنه ايديكم ! ويمينا لادفنن
من يلبسه .

فوضع احدهم الجردل وترك الفرشاة تهوى الى الارض وتتعفر
بترابها وقال المنقذ :

- تعال الى النور لترى ماذا جاء بك الى هنا ، اقعد اكم لك هنا ؟

قلت : « دقيقة واحدة . »

قال : « ما اسمك ؟ »

ولا ادرى لماذا لم اقل اسمى ولا لماذا أجرى لسانى بما جرى به
ولكن الذى ادرى به انى قلت بلهجة الجاد « ابو الخوارق »

فانفجر القوم ضاحكين ما عدا سمي الذى استعرت منه هذه السكناية
ويظن ان هذا راق منقذى . فقال : « هذا حسن ولم اكن انتظره من طفل
مثلك . » ولكنك يا صاحبي كذبت على حين قلت انك هنا منذ دقيقة
فقل الحق ولا تخف فلن يصيبك سوء »

فأخبرته الحقيقة وتعمدت - وقد اطمأنت نفسى لهذا الوعد - أن ما
سمعت ورأيت من الفحلين الجبانين اللذين مرغهما منقذى فى التراب ، لأن
احدهما هو الذى توعدنى بالإغراق وثنائهما هو الذى أراد أن يدهننى .
وهكذا انتقمتم لنفسى وأدخلت السرور على نفس منقذى ، فرافقنى إلى
أول الطريق المأنوس ثم أطلقنى فضيت أعدو إلى البيت !
وكان هذا أول عهدي (برجال الليل) .

أبو الهول وتمثال مختار

رأيت تمثال «مختار» كما لم يره غيري . ولست أعنى أنى دخلت فى جوفه ،
أو صعدت إليه ، وركبت أبا هول ، أو نظرت إليه بأربع عيون ،
ولكنما أعنى أنى لم أكد أقف أمامه وأهم بأن أرفع إليه عيني حتى
أحسست طفيلياً إلى جانبي يتأبط ذراعى ، كأنما كنت أعرفه قبل أن
يولد ، ويقول لى أن صانعه «مختار محمد مختار» . . فصرفت نظرى عن
التمثال وانصرفت إلى هذا الذى اختار أن يكون صديقي دفعة واحدة
وآثرني على غيرى من الواقفين بصحبته وراقني الموقف جداً ، وقلت له
وأنا أحفه بعيني وأبحث فى وجهه عبثاً عن مخايل «النشالين» .

- سبحان الله . أضحج ما تقول ؟

قال : وهل أنا أكذب عليك ؟ سل من شئت من الواقفين .
قلت وقد زاد اغتباطى بالموقف :

- استغفر الله . فإعرفك كذبت قبل اليوم .

وخطر لى أن أستخلص من هذا الموقف كل مافيه من متعة فقلت :

- معذرة ، ولكن صاحبه عبد الغفار ، هل . . .

فقال بلهجة من يريد أن يدركنى لينقذنى :

- لا لا لا . مختار .. مختار محمد مختار .

- معذرة مرة أخرى - مختار - وهل هو صاحبه ؟

قال : نعم .

فقلت : ومن أين اشتراه ؟

قال : اشتراه ؟ إنه هو الذى نحتته .

قلت : وهل كان هنا جبل نحتته منه ؟

فضحك ملء شذقيه ثم قال :

- جبل ؟ أى جبل ؟ أأنت من أهل القاهرة ؟

قلت : كلا إني من الريف . وهذا أول يوم لى فى القاهرة .

فزال عجبه ولم يسرنى أن أراه يضحك منى أنا الذى يريد أن يضحك منه ، غير أنه لم يسعنى أن أتراجع بعد أن ذهبت معه إلى هذا المدى ، ورددت الحديث إلى مختار فسألته :

- وهل مختار هذا من قدماء المصريين ؟ أقول هل - معذرة إذا كنت غلطت فى اسمه مرة أخرى - ولكن هل هو - أعنى صاحب التمثال - من قدماء المصريين ؟

فاقر فقه عن ابتسامة عطف على كتلة الجهل المجسد الذى كان يتأبطه واستل ذراعه ، فحمدت الله ووقف أمامى يتأملنى وقد شك فى أمرى على ما أظن ، وتوقعت أنا أن انفجر بالضحك المكتوم فيحدث بيننا ما لا تحمد - أو ما لا أحمد أنا على الأقل - عقباه .

فأشرت إلى اسم التمثال المكتوب بالخط الكوفي على القاعدة
وسألته : ما هذا ؟

قال : ألا تستطيع أن تقرأ ؟

قلت : أقرأ ؟ وهل هذه كتابة ؟

قال : نعم ، وماذا كنت تظنها ؟ إنها اسم التمثال - نهضة مصر .

قلت - وتجهمت له - اسمع يا صاحبي . لا يليق بك أن تغشنى .

فراح يقسم بالله أن الأمر كما يقول وينطق الاسم وهو يشير إلى الحروف
بأصبعه . فقلت :

- وهل هذا خط (عبد الغفار .. لا لا .. مختار . أليس كذلك ؟) إن
خطه قبيح جداً . إن أبلد تلميذ في بلدتنا يكتب خيراً من هذا الخط
ألف مرة .

وأحسبني حيرته وأدرت له رأسه بهذه الملاحظة فقد تلغم ، وسرني
جداً أن أشهد ارتباكاً ، وأقسمت لأمطرته وإبلا من هذه المدهشات ، فلم
أمله ريثما يفكر في جواب بل رميته بسؤال آخر عن المصرية الواقعة
إلى جانب أبي الهول :

- وهل تعرف هذه السيدة ؟

فرفع رأسه بسرعة وقال بلهفة :

- نعم . لا . إنها من التمثال .

فقلت : شيء جميل والله . وهل هذه أول مرة تقف فيها هذه
السيدة هنا ؟

فخلق في وجهي ولم يفهم وضاعت النكته ، واحتجت إلى سؤال آخر فقلت :

- وهل ستظل هذه السيدة واقفة هنا ؟
ففتح الله عليه بهذا :

- يا أخى هذه ليست سيدة . إنها حجر . تمثال . ألا تفهم ؟
فقلت : فهمت . فهمت ولكن أتظل هكذا ؟ ألا تتعب ؟
فقال - ودق كفاً بكف - كيف تتعب ؟ ألم أقل لك إنها حجر ؟
قلت : آه صحيح . وأى حيوان هذا الذى بجانبها ؟
قال : حيوان ؟ هذا أبو الهول ينهض .
قلت : وهل كان راقداً قبل الآن ؟

فخيل لى أنه سيدعنى ويمجرى ، ولكنى كنت واهماً فقد ثبت وكان أشجع وأجلد مما ظننته وقال بصوت خفيض - وفى تودة - :
- اسمع . ألم أقل لك أن اسم التمثال نهضة مصر ؟ اجبنى .
قاطعته وأجبتة ان نعم .

فقال : فهذا أبو الهول ينهض . يعنى أن مصر تنهض . أفهمت الآن ؟
قلت : بودى أن اكون فهمت حتى لا اتعبك . ولكن اين مصر هنا ؟
قال : أبو الهول يا أخى

قلت : وما هذه السيدة الواقفة بجانبه ؟
قال : مصر .

قلت : هل هما مصران ؟

قال : سبحان الله العظيم . لا يا اخى .

قلت : لا تؤاخذنى . ولكنك افهمتني ان ابا الهول هو مصر وإن السيدة هي مصر وقد تعلبت ان واحداً وواحداً اثنان .

قال : لا لا . إن هذا ليس حساباً . إن هذه مصر تنهض أبا الهول

قلت : اليس معنى ذلك ان مصر تنهض مصرأ ؟

قال : لقد بدأت تفهم . هذا هو المعنى .

قلت : ولكننى - ولا مؤاخذه - لم افهم .

قال - وهو مغیظ - كيف لم تفهم ؟

وبدا لى أن فى حديثنا من الجدة اكثر من المقدار الذى يحتمله هو ،
فعدت إلى التباله وسألته :

- ولكننى لا ارى الهرم هنا فهل نقله مختار ؟

قال : نقله كيف ؟ اين أنت من الهرم ؟

قلت : هكذا قرأت فى الكتب ان الهرم إلى جانبه ابو الهول فأين
ذهب الهرم ؟

ويظهر ان نقل الهرم كان اكثر مما يطيق . فلوح بيده فى
وجهى ، وتمتم شيئاً لم افهمه لأنى شغلت بنظارتى التى هوت إلى الأرض
وتكسرت عدستها واولاى ظهره ومضى .

بعد هذا الحديث الذى استطلبتہ والذى شغلنى عن التمثال وعن الوقوف به أتدبره كما ينبغى ، مضيت إلى أهرام الفراعنة ، فلما سرت عند أبي الهول وددت لو أن صاحبنا معى . إذن لسأله من صنع هذا ؟ أهو مختار أيضاً ؟

وتخيلته وهو يهز كتفيه أمامى - تحت أنفى - ويقول؛ لا يا أخى. الفراعنة .

فأعود أسأله .

- وهل هم أحياء ؟

فيستعيز بالله مى هذا الجهل المطبق ويقول .

- أحياء كيف ؟ لقد ماتوا منذ آلاف من السنين .

فأبدى له العجب من أن يكونوا أمواتا كل هذه الآلاف السنين أسأله .

- وبأى شيء ماتوا ؟

فيقول : لا أدرى . لا يدري أحد .

فاكر عليه بقولى .

- أظن أنهم ماتوا بالطاعون ؟

فيقول - لا أدرى . ربما . من يدري ؟

فألح عليه وأقول :

- أترجح أنهم ماتوا بالكوليرا ؟

فيقول بلهجة السامان - ربما ، ربما ؛ قلت لك لا أدري
فلا أدعه ولا أرحه وأقول :
- أو لعلهم ماتوا حسرة ؟

فيقول - وقد انتفخت مساحره من فرط الضجر ؟ ؛ ربما ، قلت
لك ألف مرة لا أدري ، ماتوا والسلام .
فازداد عليه شدة وأسأله :
- وأبناء الفراعنة ألا يزالون أحياء ؟

فينقذني بلفظة (مستحيل) ويعض حروفها بأسنانه ، فلا يردعني
هذا وأسأله عن أبي الهول واين القاعدة واين ابو الهول ؟
فيعود إلى كفيه يدق احدهما بالآخرى ، وبعد أن يقضى مأربه ويرقه
عن نفسه بينهما لي فأقول :

« ما أوقره ، وأشد سكونه - وهل هو ... هل هو ميت ؟ »
فيهيج برهة ثم يبين لي أنه حجر ، أو لا يستطيع معي صبراً فيلوح
بذراعه ويمضى عني .

كلا ، تمثال مختار - « محمود » مختار - على براعته لا شيء حين
يقيسه المرء إلى أبي الهول الفرعوني ، فان على هذا الوجه من الكتابة
والجد والتشوف والصبر والجلال والنبيل ، ما ليس له شبه في وجه
الانسان - وهو حجر ولكنه فيما يبدو للعين يفكر ، ينظر إلى الدنيا

حوله ولكن نظراته تتخطاها إلى الفراغ الذي يلفها في طياته ، وتتطلع
إليه فيخيل إليك أنه يرد عينه إلى الماضي متجاوزاً محيط الزمن وأمواج
أجياله وقرونه، أو متراجعاً بها ومطابقاً بعضها على بعض ، حتى تعود وقد
امتزجت وأضت مداً واحداً عند أفق القدم - نعم يفكر أبو الهول هذا ،
في الحروب التي دارت أرحاؤها في الأزمنة الغابرة ، وفي الدول التي شهد
قيامها وسقوطها ، وفي الأجيال التي رأى مولدها وراقب نهضتها ولاحظ
فناءها ، وفي المسرات والأحزان والحياة والموت والرفعة والذلة التي دارت
بها أربعة آلاف من السنين البطء .

ودع ما أرادوا أن يرمزوا له به ، أن كانوا قد قصدوا إلى شيء من
ذلك ، فما أراه أنا إلا تجسيدا لتلك المأساة الإنسانية التي يسمونها
«الذاكرة» ، في صورة بارزة محسوسة ، وما من أحد عرف أي
شعور تحركه في النفس ذكرى الأيام السوالف ، وماذا ترسم على الوجه ،
إلا وهو يستطيع أن يقرأ ذلك كله في هاتين العينين اللتين يديرهما
أبو الهول فيما عرفه وشهده قبل أن يولد التاريخ .

وهو لا يقيس الزمن بالسنين ، فانها هنيهات ، ولا بالأجيال فانها
لحظات ، وإنما يقيسه بالدول التي قامت ثم تقوضت تحت عينه التي
لا تتعب ولا تشبع من النظر، ذلك أن فيه معنى من معاني الخلود، فقد رأى
منف وطيبة وشاهد مجدهما ، وعاش ليصير الخراب يعني عليهما ويوكل
بهما البوم والوطايط ، ورأى أبناء إسرائيل يقومون ثم يسحقون ،
والأغارقة ينهضون ثم يموتون ، ورومية تشاد ويرتمى ظلها على الأرض

ثم تقنى ، والعرب يستفيضون فى الدنيا أسرع من العاصفة ثم يذهبون فى سبيل من غير .

وكما أخذت عينه عظام مئآت من الدولات كذلك ستأخذ قبور مئآت أخرى قبل أن يفتر لحظها وتطبق الجفون .

والمرء ينظر إلى أبى الهول الساهد ويفكر فى آلاف السنين التى قضاهما هنا على حافة الصحراء ، فلا يستغرب ولا يخالجه شيء من الشعور بالتنافى بين هذه الدهور الطويلة وبين مقامه هذا ، وذلك أن ربضته تشيع فى النفس معنى الاستقرار التام . وقد أحسن القدماء بإيثار الربوض له فإنه جلسة مريحة تقترب فى الذهن بمعنى الاستمرار ، وليس كذلك « النهوض » كما هو مصور فى تمثال مختار ، والمرء خلىق حين يعود إليه مرة بعد أخرى أن يحس أن لهذا الوضع ما بعده ، أما أن يثب إلى الأرض ، ولما أن يعود إلى الجثوم والراحة والسهوم مرة أخرى ، إما البقاء هكذا يوماً بعد يوم . وشهراً فى اثر شهر ، وعاماً فى عقب عام ، فليس من السهل على العقل أن يأنس إليه ويقتنع به ، وقد تكون هذه مزية للتمثال ، وعسى أن يكون المقصود بها انها نبوءة أو أمل أو نحو ذلك . ولست أعيب أو انقد ، فما أعنى أكثر من أنى حين أنظر إلى التمثال لا احس أنى قد رايت كل شيء ، وقد اتوهم انه سيثب عن القاعدة إلى الأرض .

وهذا الذى عليه ابو الهول الجديد اقعاء لانهوض ، فإن الحيوان - من البعير إلى الهرة - حين يريد ان ينهض ، يقوم على رجله الخلفيتين اولاً ثم على الاماميتين ، اما القيام على رجله الاماميتين ،

فحسب فهذا هو الأفعاء ، وهو جلسة للحيوان يتخذها أحيانا ،
واكثر ما يراه الإنسان في الكلاب ، حين تقعد ناشرة آذانها راصدة
عيونها ، وحسب ان مختارا انما اثر هذا الوضع لأن منظر ابى الهول
يكون غريباً ثقيلاً إذا انهضته على رجلية الخلفيتين ، كما ينبغي ان
يفعل إذا كان يقصد إلى النهوض ، او لعل عذر مختار ان ابا الهول هذا
خليط من الإنس والحيوان فله ان ينهض كيف يشاء حتى على راسه .

وهذه الفتاة المنصوبة إلى جانب ابى الهول لأفهم معناها ولا ادرى
لماذا يقيمها المثال هناك ويضنها بهذه الوقفة المتعبة ؟ ولو كنت انا
« مختارا » لاستغنيت عنها جملة ولا جزأت بأبى الهول وحده . لانه إذا
كان المراد الرمز إلى ان مصر تنهض ، فإن ابا الهول بمفرده حسب من شاء
ان يرمز إلى ذلك . ولن يركب الجهل احدا فيتوهم ان المراد به رومية
او قرطاجنة ، ففي نهوضه وحده ما يكفي رمزا لنهوض البلاد التي افترن
اسمه بتاريخها . زد على ذلك ان قيام الفتاة إلى جانبه تخليط ، وذلك
انها على ما فهمت رمز لمصر الحديثة . وعلى هذا يكون ابو الهول عنواناً
على مصر القديمة ، وكان المعنى - على هذا - ان مصر الحديثة توقظ
مصر القديمة ، او ان مصر القديمة تنهض إلى جانب الحديثة وفي كنفها ،
وكلا المعنيين مستحيل يرفضه العقل ولا يسبغ معناه ، واصح من ذلك
ان هناك - او هنا على الأصح - مصر واحدة تاريخها سلسلة متصلة
الحلقات ، وانها كانت نائمة او متفترية او ماشئت غير ذلك ثم ، هي
الآن تستيقظ او تنفض عنها غبار القرون وتهم بالنهوض ، وهو
معنى لا يحتاج إلى هذه الفتاة التي تفسده ولا تؤيده .

ولست استريح إلى وقفة الفتاة فإنها كالعصا ، ويمناها التي على
راس ابى الهول غريبة في وضعها ، فإنه لا يسندها في الحقيقة إذا تأملت
الا اصابعها ، اما ذراعها فكالملق في الهواء وان كانت الشملة -
او لا ادري ماذا هي - تحجب هذا التعليق عن عين الناظر ، وهي
لا تفعل بيمينها هذه اكثر من هذا الاستناد بأطراف الأصابع دون
باطن الراح ، ولا ادري لماذا جعلها كذلك ولم يدعها تريح ذراعها ؟ ثم
ما معنى هذا الوضع وما الذى قصد به اليه ؟ اتراه اراد الإيقاظ ؟
فهذه ليست حركة ايقاظ ، وليس في وجه الفتاة ادنى التفات الى الذى
بجانباها ان صح انها تريد ان توقظه . ام ترى المراد ان مصر الجديدة
تخسر عن وجهها وتبرز للعالم معتمدة على مصر القديمة ، فإن كان هذا
هو المقصود واحربه ان يكون ، فان رمز النهوض واليقظة هو الفتاة
لا ابو الهول ، ولا داعى اذن لإقامة ابى الهول على رجله مادام
ان الناهضة سواء ، وانه ليس الا تكأة ووسيلة للرمز الى الاتصال
بالماضى ، وحينئذ يكون المعنى اتم واقوم بأن يظل ابو الهول هذا
رابضاً على العهد به والفتاة حاسرة الى جانبه .

والخلاصة ان التمثال كان حقيقاً ان يكون اوفى بالغرض فيما ارى
لو ان ابا الهول ظل رابضاً الى جانب الفتاة المعتمدة عليه اشارة
الى اتكاه مصر الحديثة على ماضيها واعتزازها به واستيحائها اياه ، او لو
ان التمثال خلا من الفتاة . والاولى عندي افضل اجتناباً للاقواء ، وتقاديا
من الوقوع في هذا الغلط . اما التمثال في شكله الخالى فلا اكتم القراء
انى احس كأنى احمله وقاعدته على ظهري . ولا يسوء مختاراً قولى هذا فإنه
يعلم انى من اجهل الناس بالفنون ، وان ليس لى من الوسائل المعينة
على حسن التقدير سوى راس واحد وعينين اثنتين ليس الا .

الحب الأول

كنت صغيراً لم أدخل - بعد - في حدود الشباب ، وكان الوقت صيفاً ، وأكثر ما أقضى النهار أمام البيت اللاعب الصبية من لدائق ، فرة نكون قطاراً بخارياً مؤلفاً من بضع عشرة قاطرة - ليس بينها مركبة واحدة - ننفع جميعاً ونقول « اومف اومف بفو بفو » وأخرى نكون خيلاً تسهل وتتوثب وتضرب الأرض بحوافرها وتزعج المارة وتصطدم بهم ، وطوراً تتقاذف بالكرة ونحطم بها زجاج النوافذ فيثور السكان ويجلوننا عن الحارة ، وتارة نقسم أنفسنا فريقين ، عصابة من اللصوص وضباطاً ، وأحياناً نعصب لواحد منا عينيه وتتوارى عنه وينطلق هو وراءنا باحثاً فن لقي منا عصبنا له عينيه بدلامنه ، وهكذا إلى آخر هذه الألعاب الصببية أن كان لها آخر يعرف أو حدتقف عنده ولا تعدوه .

وكننت أنا بفضل الله احققهم جميعاً وأشرسهم خلقاً وأسرعهم إلى الشجار ، وكننت إذا ضاربني أحد لا أبالي أين وقعت يدي ، ولا أتقي أن أصيب عينه أو أنفه أو أسنانه ، وقد اتناول الحفنة من التراب واعفر به وجهه وأرده كالأعمى ، ثم انهال عليه لطماً ولصاً وركلاً .

فقد كنت واسع الحيلة كما ترى فعوضني ذلك من ضعفي ، وصارت لي بفضلها منزلة بين هؤلاء الصبيان . وكانت لي جارة - فتاة صغيرة كالترجسة

في مثل سنى - وكنت أكثر ما أراها مطلة من النافذة علينا أو واقفة إلى بابها تنظر إلينا ولا تشترك معنا ، ولا أستطيع أن اصفها ، فقد بهتت صورتها بعد كل هذه السنين الطويلة ، وإن كنت لا أزال أرى لها نوبة في القلب وعلوقاً بالفؤاد كلما كرت في الذاكرة إلى تلك الأيام ، وكانت لا تفتأ تنكر منى طيشي ومغامراتي . رأيت مرة مقبلاً على البيت بعد الغروب بقليل وعلى جلبابي الأبيض طوائف شتى من الأحوال فاستوقفتني وسألتني : « ما هذا ؟ ماذا أصابك ؟ »

قلت : اعترضتني حفرة واسعة فأردت أن اعبرها وثباً فقصر الوثب عن الغاية فكان ما ترين .

قالت : لو فكرت قبل أن تثب لعلبت أنك لا تستطيع أن تعبر الحفرة .

قلت : ولكنى عبرتها .

قالت : كلا ! لم تعبرها بل وقعت فيها وهذه ثيابك تشهد عليك .

قلت : ولكنى اجتزتها والسلام . ألا تريينى أمامك ؟

قالت : عنيد ولا خير في الكلام معك .

وتركتنى .

واتفق بعد شهر من ذلك أن لقيتها عائدة إلى بيتها وكنا على مسافة مائتى متر منه ، فلما صرنا في « الحارة » إذا هي زحلوقة لا تثبت فيها القدم من كثرة الماء المرشوش ، ولم يكن ثم طريق آخر ، فاسندت يدها

على الحائط. وناولتني يدها الأخرى ، وقلبا كنت ألمس يدها . فلما
صارت كفها في كفي شعرت بشيء من الزهو ممزوجا بالغبطة ، وخفت
على يدها اللينة البضة أن تؤذيها قبضتي - التي خيل إلى أنها قوية -
فجعلت أصابعي حول رسغها حيث العظام فيما بدا لي أقوى على الاحتمال ،
وجعلت أخطو بحذر مخافة أن يطير إلى ثوبها النظيف رشاش من الماء
القدر ، وكانت مضطرة أن تعتمد على بجسمها ، وتلك أول مرة دنت مني
أو دنوت منها إلى هذا الحد ، وكان شعرها محلولا ومرسلا من فوق
كتفها على صدرها ، فجعلت أدنى أنفي منه وأشمه ، ولم يكن معطرا ولكنني
كنت أجده ريحا طيبة ، فلحظت ذلك مني وسألتني وقد جذبت يدها قليلا
« ما هذا الذي تفعله ؟ »

قلت : إني أشمك .

قالت : تشمني ! إنك أوقح من رأيت من غلمان حارتنا .

قلت : لست أقصد أن اكون وقحا ولكن لشعرك رائحة
طيبة فهل من بأس أن أشمه ؟

قالت : كلا لا تفعل .

قلت : لقد فعلت وانتهى الأمر .

وبعد قليل قلت :

« هل تعلمين ان على وجهك وشعرك سبعة - ثمانية نجوم ؟ »

فابتسمت ولم ترد ، فقلت ومددت أصبعي وأشرت به

« حقيقة . نجان على شعرك ، هنا وهنا ، ونجم على جبينك هنا -
لثلاثة - ونجم في كل عين - خمسة - ونجم على طرف أنفك - ستة - واثنتان
على فكك هنا وهنا - ثمانية نجوم - ليت معك مرآة ! إذن لأريك ا ،

فضحككت ، وكنا قد صرنا إلى الارض الناشفة فعدنا إلى وسط
لطريق وسرنا ، ولكن يدها بقيت في يدي ، حتى بلغنا بيتها فشكرتني
ودخلت .

ومنذ ذلك اليوم صار لهذه الفتاة تأثير في نفسي ، لا أعرف له مشها ،
للم يخطر لي قط أنه راجع إلى أية عاطفة خارجة عن حياتي العادية ،
فكنت كلما رأيتها اشعر بشيء من الدهشة ويعاودني الحنين إلى شها - اعني
شم شعرها .

ولقد عرفت بعد ذلك قتيات كثيرات اجمل منها وافتن ، ولكن
خطأت فيهن جميعاً ذلك العبق الذي كانت تستريح اليه حواسي ، والذي
كان يفر له جسمي ، وكانت تغيب عني اسبوعا واسبوعين فألساها ،
ران كنت احياناً ارى صورتها ماثلة في ذهني وفي احلامي ، وصرت
احب ان اراها وهي لا ترائي ، لأرني اليها مطمئناً وارى شفيتها الدقيقتين
تفتران عن ابتسامة خفيفة ، واشتاق ان اساعدها واحميا كما ساعدتها يوم
نخطيت بها تلك الأرض المبللة ، وان اسمعها تشكرني كما شكرتني يومئذ .

وقالت على الايام ملاحظتي للصبيان ، وكثرت وقفاتي معها على بابها ،
ثم غابت اسابيع في قرية فيها بعض اقاربها ، فشعرت بوحشة لا عهد لي
بشها ، وثقلت الحياة على كاهل صبري ، فذهبت انا ايضاً إلى اقاربي وقضيت

عندهم شهرا كان من اطيب ما مربى واحلى واندى . ثم عدت ولقيتها
مساه يوم على باب دارها كعادتها، وكانت مطرقة وفي يمينها عود من ثمر
الحناء تقطع يسراها اكامه التي لم تنور، وتفرکها بأصابعها وتدعها تسقط
إلى الأرض، فدنوت منها وهي لا تحسنى ووقفت برهة، ثم قلت بصوت
خفيض مرتعش . « فیم تفکرین ؟ »

فلم ترفع عينها ولم تولنى نظرة واحدة، وقالت وهي مطرقة وأصابعها
لا تزال تعبت بما فى يدها .

« فیم أفکر ؟ فى مثل هذا — فى النور الاصفى تحت اكامه الخضراء،
فى سحائب التراب على الطريق ، فى الأغصان الصغيرة الخضراء النابتة
على فروع الشجر ، فى الاطيوار تلتقط القش وخيوط الصوف التى ألقيا
لها لتحملها بمنافيرها وتصنع منها أعشاشها، فى ألوان الفجر على الاشجار
والحقول الندية الملتمة ، فى الامساء الصافية الحالية بالنجوم المرتعشة،
فى الغدران يترقق فيها الماء حول قدمى المدلاتين — » (ثم رفعت
وجها إلى وقالت : « فى هذا أفکر »

وكانت تتكلم بصوت خافت متد متزن النبرات كأنما تحدث نفسها
فدهشت ، لا بل بهت ، ووقفت صامتاً كأنما أستل لسانى من حلقى ،
وظللنا كذلك لا أدرى كم ، ثم قالت « والآن سأدخل . »

ولكنها كانت بالذى يهم بالدخول أشبه، فوجد لسانى الكلام وقلت
« لا تذهبي هكذا بغير تحية أو سلام . »

فوقفت مكانها وأمالت رأسها ووضعت يدها فى خصرها كأن هنا

شيئاً يؤلمها فدنوت منها فإذا بلعة عينها تنطفيء ووميضها يخبو ، فقلت :
« ماذا كنت تقولين ؟ »

فلم تجبني ومدت يدها إلى بصر الحناء فقلت .
« هذا حسن . تحية طيبة . سأذكرك بها دائماً . والآن ماذا كنت
تقولين ؟ أم شيء يحزنك ؟ »

قالت : « أي شيء يحزنني ؟ لا شيء » .
قلت « اني أرى هذا في عينيك ، في ووميضهما ثم انطفاء هذا اللمعان » .
قالت وعلى ثغرها الدقيق طيف ابتسامة : « ماذا ترى في عيني ؟ »
قلت : « وكأنني ألهمت الألفاظ » أرى كأنك كنت تنتظرين شيئاً ثم
لم يحدث »

فقلت « فقط ؟ لا أكثر ؟ »

قلت « فقط . وأريد أن أعرف ما هو ؟ ولماذا ؟ »
فأطلقت ضحكة صغيرة فضية النبرات ، وبدأ عليها شيء من السرور وفتحت
ذراعها وقالت « كلا لعل قلبي أطل من عيني هنيهة كما يطل الطفل من
النافذة ثم عاد إلى مكانه .. »

فابتسمت وقد زدت بها إعجاباً وقلت « وماذا أراد قلبك أن يرى
من نافذة عينيك ؟ »

قالت « ألا تطل أحياناً من النافذة فتبصر طفلاً يعدو وهو مسرور ؟ »
قلت « نعم »

قالت « كذلك القلب أحياناً يجرى أمام العين فرحاً مسروراً، أظن قلبي فعل ذلك حين رأيت عيني تلمعان . »

ثم بعد ثانية أو اثنتين :

« والآن دعني ادخل ، إن معك هذه الزهرة فاحفظها ،

ومضت عني وتركنتني واقفاً كالآبله لا أكاد افقه من كل ما قالت شيئاً وإن كنت قد وعيته كما لم أع في حياتي شيئاً غيره .

ومر عام وكنا قد انتقلنا إلى بيت آخر فررت بدارها يوماً بعد الغروب ، وكان الباب موارباً ف رأيتها تسقى أصص الزهر في فناء البيت ، فوقفت أتأملها لحظة وهي تقبل الورد والأزاهير بعد سقيها ورشها ، ثم دخلت في رفق وهمست باسمها فلم تسمع ، فأعدت الهمس فانتبهت كالمدعورة .
وقالت « ابراهيم ؟ » وكررت ذلك .

فاقتربت منها وقلت « نعم هل أفرعتك ؟ »

ووقفت . شفتاها مفترقتان ووجهها تصبغه الحمرة من أثر المفاجأة . ولم أكن أعرف ماذا ساقني إليها سوى أنني اشتقت أن أراها . وان أقف معها لحظة أحادثها ، وقالت :

« لقد كان يجب أن أفرع ، فما سمعتك تدخل ، لكن من الغريب إنك خطرت ببالي وأنا أسقى هذه الأصص . »

فكدت أصبح لا أدري لماذا ، وقلت « أصبح هذا ؟ انه يسرنى »

فقال « لم أكن افكر فيك تفكيراً يسرك (وضحكت) لقد كنت ساخطة عليك . »

فضحكت مثلها وقلت « ماذا جنى هذا الشقى ياترى ؟ » .

فقلت « لست ساخطة لانك فعلت شيئاً ، لقد كنّا عندكم انا ووالدتي
واختي وقضينا النهار كله تقريباً ، وانت لا اثر لك فى البيت ، ولا يدري
اجد اين ذهبت ، وفى وسعك ان تتصور مللى بين السيدات العجائز . »
فضحكت مرة اخرى وقلت « انى افضل أن ألقاك هنا ويسرنى أن
اجدك وحدك » .

قالت « وهل كنت واثقا انك ستلقانى هنا ؟ »
قلت « كلا »

قالت « اذن لماذا جئت الآن ؟ »

قلت « لا اعلم ، اشتقت أن اراك لا ادري لماذا فجئت . »

ولم اكن اكذب ، فما كنت استطيع ان اعلل الشعور الذى يدفعنى
إليها ، ولا جرى ببالى إن اعلله ولكنى بهذا التصريح بالسكون الذى
تلاه ، شعرت انى دنوت خطوة من الحقيقة المجهولة ، او هكذا يخيل إلى
الآن ، وانعقد لسانى فسكت واعديتها فسكتت مثلى ، واحسنا كلانا فيما
نظن - كأن هناك شيئاً جديداً يخفق به الجو ، شيئاً لا يناله ادراك ولا
يرقى إليه العقل ، غير محسوس كالطيب يحمله النسيم .

ومر بجديها طيف من الحرة ما جاء حتى ذهب ففتحت عليها عينى
واتأرتها النظر ، فتراجعت خطوة وهى تقول « ينبغى ان ادخل » فوفقت
ارمقها وهى تدور لتمضى عنى ، ثم كأما الشق عنى سور فاندفعت اليها
ووقفت إلى جانبها ، وجعلت أدير لسانى فى حلقى بلا كلام وقلبي يخفق

وتناولت يدها وذهبت بها إلى الباب حيث ظللنا برهة صامتتين، ثم صاحبت
« يدي . يدي ستحطمها »

فانتبهت وأطلقت كفها وأسفت، فقالت بصوت عذب « دعني أدخل بالله،
فتناولت يدها مرة أخرى وعدت أطلب أن تغفر لي إذا نيتي يدها،
وقلت اني لا أستطيع أن أعود إذا لم تقل لي انها ليست حائقة علي . وكنت
أحس أصابعها تتحرك في كفي فقالت:

« كيف احنق ؟ لقد نسيت . دعني أدخل »

قلت — وأعود مرة أخرى لاراك ؟

قالت — نعم

قلت — ولا تعجلين بالدخول ؟

قالت — كلا ، دعني الآن .

ولكني لم أعد لا اليوم التالي ولا الاسبوع التالي ولا الشهر التالي،
لسبب طبيعي جداً هو اني لم أكد أسير إلى آخر الطريق حتى برز لي
شاب من الظلام وصاح بي « ماذا كنت تفعل هناك ؟ »
قلت « أين ؟ »

قال « هناك » وأوما برأسه وبأبهامه إلى بيتها .

قلت — كنت أزورهم .

قال — تزورهم ؟ هيه ؟ تزورهم سأعريك أن تزورهم مرة أخرى
ودفعني في صدري فانظرحت على الأرض ، وقت ألعنه وأسبه وأقبل على

ودقر رأسى بجمع يده فهويت إلى الأرض على ركبتي وركلنى برجله ، وذهب وهو يتوعدنى إذا فكرت فى العودة إلى هذا الطريق .

ولم أكن أعرف هذا الوحش ولا وقعت عينى عليه من قبل ، ولم أفهم — إلى هذه الساعة — سر هذا العدوان . فرجعت إلى البيت بصدر مومج ورأس يكاد يكون مهشما وعظام مرصوفة .

ولزمت الفراش أباما وخفت بعدها أن أرجع ، ثم صرت استحي أن القاهم مخافة أن تسألنى عن سر غيبتى ، أو أن تكون قد علمت به .

وبعد شهر عدت من المدرسة يوما فإذا هى والدتها فى بيتنا ففرحت وخجلت ، ولما سلت كانت يدى ترتجف ، وعينى إلى الأرض ، وذهبت إلى غرفتى فأدركتنى الصلاة وقالت «خذ» وناولتنى عوداً من ثمر الخناء فأخذته فى صمت وادنيته من أنفى ، ووقفت أشبه واشمه وقد غاض معين الكلام وانقطع عنى مدده . فلما رأت صمتى وارتباكى قالت :

— سندهب إلى الريف ،

فانطقتنى هذه المباغته وقالت — سندهبين ؟ وكم تظاين هناك ؟

قالت « عاما . أتستكثرون ذلك ؟ »

قلت — « بالطبع أنى آسف جداً ، .

قالت — « ولكنك لا تزال تهرب منى ، .

فأغضيت عن هذه الملاحظة ، وسألتها — « وماذا تنوين أن تصنعى هناك هذا العام ؟ » .

قالت — ياله من سؤال وكيف يعينك أن تعرف ؟ »

وضحكت فجلت ضحكها صدرى ونفت مخاوفي ونظرت إليها معجبا،
وأحسست بالدم يتدفق في عروقي ، وبأنفاسي تسرع ، وحمل إلى الذسيم
الواني طيب شعرها فددت يدي إلى كفها ، وكانت شفتها مفترقتين
وعيناها في عيني ، وصدرها يكاد يلبسني ، فألفيت نفسي انحنى عليها والمس
شفتها بفي ، فصار وجهها كالجرة ، ولكنها لم تتحرك ولا تكلمت ،
ودار رأسي كالخمور فتقهقرت خطوة ، وهي واقفة كالتمثال ، وما أظنها
كانت تتنفس أو تفكر ، فسا رأيت صدرها يتحرك أو اجفانها تحتلج :
كلا لا شيء إلا هذا الجمر في خديها ينبيء أنها حية .

وأفاقت ثم أصعدت زفرة كأنما كنت لطمتها ولم أقبلها ، ثم هتفت بي ،
فأسرعت وأخذت يديها في كفي ، ثم رفعتها وقبلتها وقلت لها : « أغاضبة
أنت ؟؟ قولي إنك لست غاضبة » .

فأجابتنى بهزة خفيفة لرأسها ، فقلت :

« لست غاضبة . أعلم ذلك ، وإلا فما قبلتك ، تكلمي » .

فقالتمهما : « دعني أذهب أني خائفة » .

فقلت « إنك جميلة . جميلة » وأنهلت على يديها مرة أخرى الشهماظهرآ

وبطناً ثم سحبت يديها ببطء ، ووضعتهما على صدرها وقالت وهي تتلعثم
وترتجف : « قل لي ما هذا ؟ » .

قلت : ووضعيت يدي على يديها فوق صدرها « هذا ؟ الاتعللين أنه
الحب ؟ » .

فتنهدت ، وارخت يديها وتركتهما تهويان وقالت :
« سأذكرك دائما » .

قلت : كلا هذا لا يكفي . سيحبك غيري » .
ولم تكد شفتاها تفترقان ، وهمست كأنما تتنفس .
« سأحبك دائما » .

وكان هذا آخر لقاء ، فقد زوجها في الريف .

حلاق القرية

وقعت لى هذه الحادثة فى الريف منذ سنوات عديدة ، قبل أن تتغلغل المدنية إلى أنأى قراه ، وكنت أنا الجانى على نفسى فيها، فقد عرض على مضيقى أن استعمل موساه فايبى ، وقلت مادام للقرية حلاق فعلى به ، فخذرنى مضيقى وانذرنى ووعظنى ، ولكنى ركبت رأسى واصررت أن يحىء الحلاق . فجاء بعد ساعات يحمل مازنته فى أول الأمر (مخللة شعير) وسلم وقعد وشرع يحينى ويحادثنى حتى شككت فى أمره واعتقدت أن الحلاق شخص آخر ، وأن هذا الجالس أمامى ليس سوى (طلائعه) ولما عيل صبرى سألته عن حلاق القرية ، فابتسم ومشط لحيته بكفه وأنبأنى أن الحلاق (محسوى) يعنى نفسه ، فلعنته فى سرى وسألته متى ينوى أن يحلق لى لحيتى ؟ أم لابد أن يضرب بالرمل والحصى أولاً ويحسب الطالع قبل أن يباشر العمل ؟ فلم يفهم وأولانى صدفا كث الشعر وقال « هيا ، فظننته أصم وصحت به (أ . . . ر . . . يد أن . . . أ . . . ل ق) فسره صياحى جداً ، وضحك كثيراً ، وأقبل على (مخللاته) فأخرج منها مقصاً كبيراً جداً ، فدنوت من أذنه وسألته هل فى القرية فيل ؟

فقال : فيل ؟ لماذا ؟

فأشرت إلى المقص فضحك وقال : « هذا مقص حمير ولا مؤاخذة » .

قلت « ولماذا تجيئني بمقص الخير ؟ احماراً تراني ؟ » .

ويظهر أن معاشره الخير بلدت احساسه فإنه لم يعتذر لي ولا عني ، بسؤال شيتا ، ثم أخرج موسى من طراز المقص و (مكنة) من هذا القبيل أيضاً ، فعجبت له لماذا يجيئ لي بكل أدوات الخير ؟ وسألته عن ذلك فقال : إن الله مع الصابرين . وبعد أن أفرغ مخلاته كلها انتقى أصغر الأدوات ، وأصغرها أكبر ما رأيت في حياتي . ثم أقبل على وقال :
« تفضل » .

قلت « ماذا تعني ؟ » قال « اجلس على الأرض » قلت « ولماذا بالله ؟ » قال « ألا تريد أن تخلق ؟ » قلت « ألا يمكن أن أخلق وأنا قاعد على الكرسي ؟ » قال « وأنا ؟ » قلت في سري : وأنت تذهب إلى جهنم ونعم المصير ، وهبطت إلى الأرض كما أمر ، ففتح موسى كالمبرد ، فقلت : أن وجهي ليس حديداً يا هذا ، قال لا تخف إن شاء الله ولكني خفت بإذن الله ولا سيما حين شرع يقول « بسم الله ، الله أكبر » كأنما كنت خروفاً ، ويبصق في كفه ويشحذ الموصي على بطن راحته ، ثم جذب رأسي ، فذعرت ونفرت ووليت هارباً إلى أقصى الغرفة ، فقال : ماذا ؟

قلت « ماذا ؟ أتريد أن تخلق لي بمبرد ، ومن غير صابون ؟ »

قال « ماذا يخيفك ؟ » .

قلت « يخيفني ؟ لقد دعوتك لتخلق لي لحيتي لا لتبرد لي شعرها » .

قال « يافندي لا تخف » .

ثم قرأ من الكتاب الكريم « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته

البشرى ، إلى آخر الآية الشريفة ، واضنه أراد أن يرقينى بها فيا لها من
حلاقة لا تكون إلا برقية ١ .

واسلبت أمرى لله وعدت فقعدت ، أمامه فنهض على ركبتيه وتناول
رأسى بين كفيه وأمال صدغى إليه ثم وضع ركبته على نغذى ولف ذراعه
حول عنقى ، فصار فى مدفوناً فى صدره فصحت أو على الأصح جاهدت
أريد الصياح لعل أحداً يسمعنى فينجدنى ، غير أن طيات ثوبه كانت فى
فى ، أما رائحة الثوب فبحسب القارىء أن يعلم أنها أفقدتنى الوعى .

ولا أطيل على القارىء . فقد أهوى الرجل بموساه على وجهى فسلخ
قطعة من جلدى فردنى الألم إلى الحياة ، وأتانى القوة الكافية للصراخ على
الرغم من الحكمة ، ووثبت أريد الباب ولكنه كان على كبرسنه أسرع منى ،
وما يدرينى لعله كان يتوقع ذلك ، وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون
يقظاً لأمثال هذه المحاورات ، فردنى بقوة ساعده . فلتشهدت وتذكرت
قول المتنبى :

ولم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تموت جباناً

كلا ساسدل الستار على هذا المنظر الذى يقشعر منه جلدى على
الرغم من كبر السنين الطويلة . ثم جاء هذا السفاح بطشت يغرق فيه كبش ،
ووضعه تحت ذقنى وصب مائه على وجهى وفى صدرى وعلى ظهرى ،
ليغسل الدم الذكى الذى أراقه ، وأخرج من مخلاته (منشفة) هى بممسحة
الأرض أشبه ، فاعتذرت وأخرجت منديلى وسبقته به إلى وجهى . ففى
معركة لاتزال بجلدى منها ندوب وآثار .

سحر مجرب

لا أدري كيف أسوق للقارئ حكاية هذه التجربة بحيث لا يتوهم أني أهزل، ولكن الذي أدريه أنه قل بين الصبيان من اتفق له ما اتفق لي من التجارب، ولو أنه قدر لي أن اكتب تاريخ حداثتي .. ولكني هزيل الصبر، ولعل بما هو حقيق أن يعين القارئ على فهم البواعث التي تغري حدثاً في مثل سني يؤمئذ بما فعلت، أن أقول له إنني نشأت نشأة دينية، واعني بذلك أن أهلي من أهل الورع والتقوى والصلاح، وأن بيتنا كان في فئاته مصلي أو مسجد صغير عامر أبداً بالمصلين ليلاً ونهاراً. والآن إلى القصة بعد هذا التمهيد الوجيز الذي لم أر منه بدا اتفاقاً لسوء التأويل ونفياً لمظنة المغالاة.

عثرت في باكورة حياتي على أوراق مخطوطة استولت على هواي واستبدت بخاطري، وقد اعتقدت يومئذ انها بخط جدي لأبي وإن كنت لا أذكره إلا كالحلم، فقد مات في طفولتي ولحق به أبي، ولم أره قط يكتب ولا ثبت عندي أن هذا خطه، وكنت أكبر جدي وأجل ذكره لغير سبب سوى ما كان تلاميذه يحدثنني به عن علمه وتبحره وتقواه، فقوى اعتقادي هذا فثقتي بما في الأوراق وثبت يقيني فيها، وكان من عادتي أن اقضي الصيف في «الإمام» حيث تقيم طائفة كبيرة من أهلي، وكان

لأحدهم حمار مليح التسميات لين الخطوات ، فكنت أركبه حين أشاء
إلى حيث أشاء ، وأبى الحظ إلا أن أعشق ، وما أكثر من عشقت
في تلك السنوات الأولى من شباني . ولقد صدق أخى « العقاد » حين
قال يصفنى بعد ذلك بأعوام عدة :

أنت في مصر دائم التمسيد بين حب عفا وحب جديد
بين ماض لم يذبل الحسن منه وطريف كاليانع الالمود
أنت كالطير . ربما شالت الطير عن الأليك وهو جم الورود

ولم يكن الحظ يلقينى إلا على كل فتاة « عسيرة البذل » كما يقول
الشاعر - ولا أذكر من هو - فخرت ماذا أصنع ، ولم أر أن أستشير
أحدًا من الصديان الذين كنت أختلط بهم ، لأنى كنت أراهم دونى معرفة ،
ثم تذكرت الورقات التى كنت أعتقد أنها بما خلف جدى ، فوجدت فيها
(فائدتين) طرت بهما فرحاً ، فأما الأولى فتقول :

« من أراد الارتقاء إلى الدرجات العلا فليطهر ظاهراً وباطناً ،
وليصم سبعة أيام وليواظب دبر كل صلاة على هذه الأسماء - يا هادى
يا خير يا متين يا علام الغيوب - ألف مرة ، فإنه يكشف له عن كنوز
الأرض وينادى به فى ضمائر الناس ، وإن أكمل ثلاثة أسابيع فى الرياضة
كشف له عن ملكوت السموات والأرض بإذن الله تعالى ، وأما صفتها
للإخفاء فهى أن تقرأ الآية الشريفة سبعائة وخمسين مرة ، ثم تقول
بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم - إلى قوله فهم لا يبصرون -
ثلاثمائة وثلاث عشرة مرة ، فلو اجتمع أهل السموات والأرض على أن

بصرك لم يقدرُوا ويعمى الله أبصارهم عنك فلا يرونك ، وأكثر من ذلك أن يحول الله قلوبهم إليك بالرافة والمجد والعطف .

وكان هذا كل ما فى الورقة ، فأما كنوز الأرض فلم يكن يعينى منها يومذاك شيء ، فما كان لى هوى إلا مع تلك الفتاة ، أو رغبة إلا فى الآنة قلبها . وأما الكشف عن ملكوت السموات والأرض فشيء مرعب خفت أن أعالجه فاصعق . وأما الاختفاء عن الأبصار فهذا ما سحرنى واستولى على لى ، وتشبث به خيالى . ألسنت أستطيع إذا فزت بذلك ووقفت إليه ببركة هذه الفائدة ، أن أكون أدنى شيء إلى الفتاة وأن أراها ولا ترائى وأتملى بحسنها وقربها وهى ذاهلة عنى لاتحسنى ؟

ألسنت أستطيع بفضل هذا السر الجليل أن أكون حيث أشاء وإن أفعَل ما بدا لى بلا تريب ؟ لا ترائى الأبصار ؟ وأفرحتاه ؟ أى شيء اتقى بعد ذلك ؟ أى شيء يصعب على ؟ تالله ما أولانى بحمد الله على أن كان لى مثل هذا الجد الصالح ؟

ولكن الورقة لم تذكر الآلة التى لابد من تلاوتها سبعاً وخمسين مرة ، ناداً أصنع ؟ حرت قليلاً ولكنى كنت فتى عملياً ، فتناولت المصحف شريفاً وقلبتة حتى وقعت بينى على قوله تعالى « لاتدرك الأبصار وهو برك الأبصار وهو اللطيف الخبير » واقنعت نفسى بأن كلام الله كله فى منزلة واحدة من الجلال وأن كل آية كمثل آية ، وليست كلمة منه بأفضل من أخرى غيرها . وما أرى حتى الآن إلا أن منطقى كان مستقيماً وتفكيرى كان سليماً سديداً .

وأما الفائدة ، الثانية فتقول ما يأتى ؛

ومن أراد اقبال الناس عليه بالمحبة والهيبة والتعظيم له فى قلوبهم فعليه براءة هذه الآية الشريفة عقب الصلاة اربعمائة وخمسين مرة ثم يتلو بعدها هذا الدعاء الجليل سبعة الاف مرة فانه يحصل له من الخير ما لا تدركه الافهام وهى هذه : بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم يا الله - ثلاثا - يا رحمن - ثلاثا - يا رحيم - ثلاثا - لا تكننى إلى نفسى فى حفظ ما ملكتنى بما انت اعلم به منى ، وامدنى برقيقة من رقائق اسمك الحفيظ الذى حفظت به نظام الموجودات واكسنى بدرع من كفايتك وقلدنى سيفاً من نصرك وحمايتك وتوجنى بتاج عزك ومهابتك وكرمك وركبى مركب النجاة فى الحيا وبعد الممات بحق خجش ثطخذ وامدنى برقيقة من رقائق اسمك القهار تدفع عنى بها من ارادنى بسوء من جميع المؤذيات وتولنى بولاية العزيز تخضع لى بها كل جبار عنيد وشيطان مريد يا الله يا عزيز يا جبار - ثلاثا - الق على من زينتك ومن محبتك وكرامتك ومن حضرة ربوبيتك ما تبهر به العقول وتذل به النفوس وتخضع له الرقاب وترق له الابصار وتبدد دونه الافكار ويصغر له كل متكبر جبار وتسخر له كل ملك قهار يا الله يا ملك يا عزيز يا جبار - ثلاثا - يا الله يا واحد يا احد يا قهار - ثلاثا - اللهم سخر لى جميع خلقك كما سخر البحر لسيدنا موسى عليه السلام ولين لى قلوبهم كما لينت الحديد لداود عليه السلام فانهم لا ينطقون إلا بإذنك ، نواصيهم فى قبضتك وقلوبهم فى يدك تصرفها كيف شئت يا مقلب القلوب - ثلاثا - يا علام الغيوب - ثلاثا - اطفأت غضبهم بلا اله إلا الله استجلبت محبتهم بسيدنا

ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رايته اكبرنه وقطعن
ايديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا إلاملك كريم ، وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ويكون ذلك في جوف الليل ،
ثم تصلى ست ركعات فاذا سلئت تقرأ الدعاء تسعمائة وخمسين مرة ، وفي
حال قراءتك للدعاء تصور المطلوب بين عينيك كأنك تجذبه إليك ،
فاذا وفيت العدد المطلوب تقرأ هذه الآيات سبعا وهي : يحبونهم كحب
الله والذين آمنوا أشد حبا لله . لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألقت
بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم ، وألقيت عليك محبة
منى ولتصنع على عيني ، تقرأ هذه الآيات سبعا وأنت في كل ذلك تبخر
بالجاوى واللبان الذكر .

ثم طويت الورق ووضعتني في جيبى وخرجت إلى السوق ، وقد بدأت
أشعر كأنى فوق الناس ، أو كأنى أمتنى في السحاب ، واشترت قليلا من
الجاوى واللبان والفحم ، وخرجت على الفتاة وأنا عائد إلى البيت ، فلما
رأتنى أحمل هذه الأشياء ضحكت وقالت : أترأك صرت خادما ؟ مبروك
ان شاء ، فألقيت إليها نظرة عطف مشوبة بالكبر ، وقلت ملغزا ويدي
على جيبى : أترين هذا الجبل ؟ - وأشارت إليه - سيحمل الليل إليك
صوتا منه ، ومضيت غير عابئة بضحكها وسخرها .

ولا أطيل ، خلوت بقية النهار إلى نفسى حتى فرغت مما فرضت
و الفائدة الأولى ، ثم قمت بعد العصر بقليل وفي اعتقادى إنى قد اختفيت
عن أعين الناس ، وقصدت إلى حيث الحمار مقيد فكسكت القيد وأسرجته

وألجته ووضعت عليه « خرجاً » فيه ما يلزم من مواد البخور وأعواد
 الثقاب والفحم وسبحة وموقد صغيراً ولابريقاً فيه ماء ، ووضعت فوق
 « الخرج » فروة صغيرة لجلوسى ، ثم ركبتم الحمار بعد أن صار أعلى
 من البغل وسرت به بين المساكن إلى الجبل ، وكان الناس قد ألفوا منى هذا
 الخروج ، فلم يلتفت إلى أحد ، ولكنى كنت أعجب لهم فى ذلك اليوم كيف
 لا يدهشهم أن يروا الحمار سائراً وحده وليس عليه راكب ؟ وعلت ذلك
 بأن السر الذى أخفاني عن أبصارهم لا بد أن يكون قد امتد إلى الحمار
 أيضاً فتوارى مثلى عن العيون ، فجعلت أتلفت يميناً وشمالاً وأضحك ، واتفق
 لى مررت بشيخ كليل البصر وإن كان فيما ترى العين سليم النظر - ولكنى
 لم أكن أعرف ذلك - فحككت له أنى بسباتى ورحت أخرج له لسانى وأمط
 شفتى تحت أننى فلما لم أجده التفت إلى صفقت من فرط الجذل ، ففرع
 الرجل قليلاً فقلت لنفسى سمع الصوت ، ولم ير الشخص فحق له أن
 يفرع ، فطغى بى الطرب ولم أعد أطيق هذه المشية الهينة ، فضربت الحمار فضى
 يعدو بى إلى الجبل . وهناك فى سفحه ترجلت وربطته إلى حجر على باب كهف
 صغير كنا - وأعنى غلمان الحى - نقبل فيه إذا حمت الشمس ، وفرشت
 الفروة فى جوف الغار ووضعت الفحم فى الموقد وأشعلت فيه النار وتركته
 للريح قليلاً لتضرمه ، واستلقيت أنا على الأرض ، وانطلقت أفكر فيما سيكون
 من أمر الفتاة معى بعد أن أفرغ من العمل ، وجمع بى الخيال فبدأ لى
 كائى فى التهليل والتسبيح والدعاء فجاءنى رجل وجلس عن يمينى لم أر فى
 زمانى أحسن منه ولا أطيب ريحاً فقلت : من أنت ؟ قال : أنا الخضر جئتك
 حباً فى الله عز وجل وعندى هدية أريد أن أهديها إليك فقلت : وماهى

قال : هي أن تقرأ . فقاطعته وقلت : كفى . كفى . لقد بجم صوتي من القراءة
فدع هذا وهات لي . . .

ولم يعجبني هذا ، فاختصرت الحكاية وجعلت الخضر يقوم مغضباً
وأنا لا أعبأ شيئاً ، وعدلت بالخيال إلى سواء فتصورت الفتاة تهب
من النوم مذعورة تلهج باسمي ويهتف بها هاتف أن اخرجي إلى مكان
كذا في سفح الجبل ، فتخرج في ظلام الليل حافية عارية الرأس في ثياب
النوم ولا تزان تجرى حتى تبلغ الكهف دامية القدمين من وخز الحصى
والرمال ، فتقف بالباب وتناديني فأدع القراءة وأصيح من ؟

فتقول فلانة (أو لعل الأحسن أن تقول حبيبتك فلانة ؟)

فأقول « ماذا يجيء بك إلى هنا »

فتقول « لم أطق صبراً »

بل اجعلها تقول « رأيتك في نومي ناظراً إلى محذقاً في لجذبتني عيناك

ولم أزل أسير على ضوئكما حتى جئت إليك »

فأقسو عليها وأنتصف لنفسي منها وأؤدبها غير أدب الصباح حين

تهكمت علي وهنأتني بأن صرت خادماً وأقول لها « ارجعي من حيث

جئت فما بي حاجة إليك »

فتجشو على ركبتيها وتتوسل إلي أن أدعها ولو عند قدمي . . .

ولم يعجبني أن أنصورها تجشو عند قدمي ، فقد كنت رقيق القلب

مهذب النفس فغيرت الموقف واعتضت منه آخر فشرعت أغازلها تليحاً

لا تصرّحاً ، وأصف لها جارة دميمة الساقين ضخمة القدمين فتسألني
ماذا تعنى ؟

فأقول أعنى ان للساق الجميلة سحرها

فتقول « ولكن ماذا يعنىك من ساق هذه الفتاة ؟ »

فأقول « إنها تفسد على اليوم كله حين أراها ، وأخشى جداً أن
تفسد لى صحتى ،

فتقول « إنك مضحك ولست أفهمك ،

فأقول « تصورى هذه الفتاة التى سلبتها الطبيعة كل مفاتن المرأة
كيف يكون لها لو أن الشهرة (المودة) كانت تقضى بأن تكون ثياب
النساء قصيرة ؟ كيف تجرؤ أن تبدى ساقها لعيون الناس ؟ »

ثم أطرق برهة فتردنى إليها بسؤالها عنى ماذا بى ؟
فأقول « بى هذه الطبيعة التى تأبى إلا أن تخرج إلى الدنيا
مثل هذا التشويه ،

فتقول « لعل الفتاة سعيدة لا تفتن إلى عيبها ،

فأقول « سعيدة ؟ أتكونين أنت سعيدة لو كنت مثلها ؟ »

فتسرى فى بدنها رعدة خفيفة فأكر عليها بقولى .

« بأى حق تمنحك الطبيعة كل ماحببتك من المفاتن وتسلب تلك
المسكينة كل هذا الذى ضننت به عليها ؟ »

فتهلل أسارير وجهها وتقول « ولكن لعلها لا تكترث لذلك ،

فأقول جاداً « أين الفتاة التي لا تحفل أن تكون دميمة ؟ تصورى
ملابد أن يصيبها من الألم حين تراك ؟ »

فترفع عينها إلى وتحقق في وجهي لتقرأ فيه المعنى الذي أرمى إليه
والذي يغالطها صوتي في حقيقته وأمضى أنا في حديثي فأقول :

« إن كل ماجادت به الطبيعة عليك ينقصها ... ، فتقاطعني وتقول :
« ولكن ما ذنبى أنا حتى تحطم لى رأسى بها ؟ »

فأقول معتذراً « هل ضايقتك بحديثها ؟ إنى آسف . ولكن هذه
المنابر تستفز نفسى وتثير سخطى كأتى وحش ،

فتقول « ألا تظن أنك قد تنىء إلى السكينة والهدوء إذا تركتك وحدك ؟ ،
فأنهض وأقول « لا لا لا ! يا لها من فكرة شنيعة ،

فتقول « إنك على ما يظهر ... ،
فأقاطعها وأقول « سأنسى ساقها ولا أفكر إلا ... ،

ولكننى لم أشأ أن أعترف لها حتى فى الخيال ولم يرقنى هذا الحوار
ومافيه من اللف والدوران ، فغيرت المنظر وحولت الصحراء المحيطة بى
جنة فيحاء خافلة بالشجر حائلة بالزهر ، وتصورت نفسى أطوف فيها باحثاً
عن فتاتى ، ثم إذا بى أرى ثوبها فأمضى إليها على أطراف اصابعى ،
فيعترضنى حاجز من النبات الكثيف الشائك فيخطر لى أن أتسلل إليها
حتى أصير إلى جانبها قبل أن تشعر بى ، ولكن النبات المتشابك تحيط بى
أشواكه وأنا أعالج اختراقها وتسمعننى هى فتدير وجهها إلى ناحيتى

قتراني ، فتصبغ الحرة وجهها - ومن عنقها إلى جبينها - ويعبث النسيم
بشعرها ويطير على وجهها وكفها فتمسحه بكفها وترده عن جبينها، ثم تقف
ويداها في جانبي خصرها، وشفتاها مفترقتان من المفاجأة، وكأنها تحاول
أن تعلق أنفاسها بخافة أن تذهب زفرة بالسرور المباغت الذي شاع
في كيائها حين رأتني .

ثم تهمس « ابر... ايم »

فأصبح وأنا اعالج من أسر الأشواك « لقد سجننت هنا ،

فأقول « لقد قلت لي انك لن تأتي قبل اسبوعين ثم هذا أنت ،

فأقول « إذا لم تأت إلى نجدتي فلن اجيء إليك قبل عام ،

فتضحك ويسرها ما أنا فيه فأصبح بها « مهلاً ريثما أتخلص ،

وأحاول الخلاص فأزيد تورطاً، فتصفق وقد أمتعتها منظر اعتقال

وتقول « لن تنفذ أبداً من هنا . فارجع . ذلك خير وأسرع ،

وتخزني شوكة فأهيب بها أن تنجذني فتضحك وتقول « إن منظرك

ظريف . ليت هناك مرآة فترى نفسك فيها ،

فأضحك من نفسي وأقول لها « إنني لم امش كل هذه المسافة ليكون

منظري مضحكاً . وما أراني استطيع الآن ان احرك اصبعاً فإن الشوك

يتلفاني من كل ناحية . بالله نحى هذه الشوكة عن ذقني فإنها تكاد تقتلني ،

وترى الدم سائلاً من ذقني فيدركها العطف على ، فتتحجى بالشوك

بيديها عن وجهي وتضعفه بكفها فيدنو وجهها مني ، وتصبح عيناى

في عينيها ، وأبني قبالة أنفها ، وفيها امام في ، ويقرأ كل منا في عيني
صاحبه من آيات الحب ما لاسيل إلى العبارة عنه ، ثم يدور رأسها ،
وتهم نظرتها وتهوى على في بفمها ، ويحط في هذه الساعة عصفير
على غصن وينطلق بفرد .

ولما بلغت إلى هنا فيما تخيلت وبينما انا اتذوق القبة التي تصورتها
مطبوعة على في ، نهق الحمار ! فانتبهت مذعوراً من حلمي اللذيذ !
ومحت الصور الفاتنة وانتسخت الخيالات الأنيقة المعجبة وردني الصوت
المنكر إلى ما جئت من اجله ، فقممت متاثلاً وفرشت الفروة في أرض
الكهف واطلقت البخور في الموقد ، وقت إلى الصلاة ، ثم شرعت
في التلاوة على نحو ما حتمت الورقة .

ولا أدري ماذا أصابني ، ولكن الذي أدريه اني ظلمت اقرأ وأقرأ
في جوف الليل واطلق بخور الجاوى واللبن ، ثم لم اعد اعنى شيئاً .
ولما قت في الصباح كان ضوء الشمس قد غمر السهل والجبل ، فخرجت
من الغار وأنا لا أفهم ، وأدريت عيني في كسل وفقور ثم تذكرت الحمار ،
فمدد في عروقي ، وأحسست العرق البارد يتصبب . أين ذهب ؟
وكيف يفك القيد عن ارجله ويحل اللجام عن الصخرة ؟
ولا خير في الإطالة فقد سرقه اللصوص وأنا ملق كالجنة في جوف
الغار ، بارك الله في جدى وفوائده . !

الفرسية

دعينا مرة — أنا وطائفة من الأخوان — إلى قضاء يومين في ضيعة أحدهم ، وكانت قريبة من إحدى الضواحي فركبنا القطار إلى ... وهناك وجدنا طائفة شتى من الخيل والبغال والحمير ، فتوهمت في أول الأمر أن هناك سوقاً للدواب أو معرضاً لها . ثم علمت أنها لركوبنا . فاخترت من بينها حماراً صغيراً وهممت بامتطائه ، ولكن صاحب الضيعة وداعيننا عز عليه أن يركب (المازنى) حماراً ، وجاءني بجواد أصيل وأقسم على لأركبته . فاستحييت أن أقول له أنى أخاف ركوبه ، وأنه لا عهد لى بالخيـل ، ودنوت من بعض الخدم وهمست فى أذنه هذا السؤال .

« قل لى . كيف تركب هذا الحصان ؟ » .

فتأملت ملياً ثم قال وعلى فـه طيف ابتسامة .

« على ذيله ! » .

قلت « على ماذا ؟ » .

قال « على ذيله » .

وأشاح عني بوجهه . فذهبت إلى الجواد وأدرت عيني في ذيله ثم هزرت رأسى وعدت إلى الخادم أسأله :

« ألا تظن يا صاحـبى أن الأحزم أن أمتطيه قريباً من العنق لاستطيع عند الحاجة أن أطوقه بـذراعى ؟ » .

فلم يرد الرجل على أن قال « ربما » وانصرف عني إلى سوى ، وكنا جميعاً في هرج ومرج نصيح ونضحك ، وكان لابد أن أفعل شيئاً فنأديت مضيفنا وقلت له :

« أريد سلماً ، .

قال في دهشة — « سلماً ؟ ما حاجتك إليه ؟ ، .

قلت « حاجتي إليه إنني أريد أن أصعد إلى ظهر هذا المجلي يا صاحبي ، . فضحك وقال « أنا أساعدك » ودفعني على ظهر الجواد دفعة خيل إلى أنها ستلقيني على الأرض من الناحية الأخرى .

وسرنا مسافة على مهل ثم وخز أحدنا دابته فضت تعدو واستحث آخر مطيته ، وانطلق بها وراه ، واقترب مني ثالث وأهوى على جوادى بعضاً معه ، فوثب الجواد وراح يسابق الريح — أو هكذا خيل إلى — وأنا أعلو وأهبط فوقه ، حتى أحسست أن أمعاني ستقطع ، وأتلس يدي شيئاً أمسكه وأتعلق به فيفلت من قبضتي كل ما تصل إليه ، فارتيمت على عنقه وطوقتها ، وجعلت أنادى من حولى وأناشدهم الزمة والضمير والمروءة أن يوقفوا هذا الشيطان . وأدرك أحد اخواني العطف على ، فصاح بي « ولكن كيف نقفه نحن راكبون ؟ ، .

فعاظني منه هذا البله ولم يقتنى ما في الموقف من فكاكة على الرغم من الألم الذى أعانيه وما أتوقعه إذا ظل الجواد يركض بي ، فقلت له : « يا أبله أنزل وأقبض على ذيل حصاني وشده ، .

وكان أحد الخدم قد أدركنى وأمسك بالجام ورد الجواد ، فما أسرع ما انحدرت عنه ، وكأنما أعجبتنى جلستى على الأرض ، فأخرجت سيجارة

وأشعلتها وذهبت أدخن ، وجاءني مضيفنا على أكتافه فسألني :
« أتتوى أن تقعد هنا إلى الأبد ؟ »

فاغضيت عن سؤاله وقلت :

« إن بي حاجة إلى الشعور بثبات الأرض بعد كل هذا التقلقل
وتلك الزعزعة . »

قال : « ولكنك لا تستطيع أن تظل جالساً هكذا . أن أماننا
سير ساعة . »

قلت : « سألحق بكم إذن ، أو أرجع إذا كان لابد من ركوب
هذا الزلزال . »

قال : « ولكن لا يليق أن تركب حماراً . »

قلت : وقد صار في وسعي أن أضحك — « في وسعك أن تعلق
ورقة تكتب فيها أنه جواد مطهم . »

قال : « لا تمزح ، قم اركب حمارى هذا . »

قلت : « إذا كان الحمار عالياً فما الفرق بينه وبين الجواد ؟ »

قال : بلهجة اليائس أو المنتقم — « إذن خذ هذا . »

وأشار إلى جحش قىّ مهين يركبه خادم ، لا سرج عليه ولا لجام
له ، فقممت إليه وامتنطيته بوئبة واحدة وبلا معين .

واعترضتنا قناة عريضة عليها ألواح مثبتة تقوم مقام الجسر ، وبين
الألواح ، والماء تحتها ، متر على الأقل فلما توسطنا الجحش بدا له أن يقف ،
وراقه منظر الماء ، فأجال فيه عينيه برهة ثم خطا إلى حافة الجسر —
ولم يكن له حاجز — ومد عنقه إلى الماء ، فظننت أنه قصير النظر وأنه

يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله في الماء واجتلاء طلعتة البهية في صقاله ، ولكنهم قالوا الى انه كان يريد أن يشرب . فنزلت عنه وقلت له « يا عزيزى أن من دواعى أسنى أنى مضطر أن أتركك إلى الماء وحده . فإن ثيابي يفسدها الماء وهى غالية إذا كانت حياى رخيصة » .

ولكنه بعد أن فكر قليلا غير رأيه ، إما لأن الصورة التى طالعتة فى صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وبجزع الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة ، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكشفني بها . فأدار وجهه ومضى غير ملتفت إلى ، غير أنى لحقت به بعد أن اجتاز الجسر ، وقلت له « تعال لا تهرب منى يا صاحبى ، وكنت على ظهره قبل أن يتمكن من الاعتراض أو الاحتجاج أو الألفلات .

ويطول بنا الكلام إذا أردت أن أصف كل ما امتعنى به من الفكاهات العملية، فقد كان فيه عناد وصلف، وكان يأبى أن يتوسط الطريق ولا يرضيه إلا أن يحك جنبه فى كل ما يلقاه من شجر أو عربة أو حائط، وكان ربما وقف وغرس رجله فى الأرض . ونام . وتعودت منه ذلك وفطنت إلى أنه ذو مزاج مستقل، فكنت أتركه واقفاحتى ينتبه من هذه الاغفاءات ، أو يعود إلى من سبحات عقله السقراطية ، فنستأنف المسير وحسبى وحسب القراء أن أقول لهم أنى أسفت على فراقه لما انتهت الرحلة، وتمنيت لو أن صحبتنا كانت أطول .

الطفولة الغريبة

أظنتي كنت في الرابعة أو الخامسة ، فإذكر على التحقيق كم كانت سنى- والطفل عندنا - أعنى في بلادنا - لا يفكر - أو على الأصح لا يسمح له أن يفكر في مثل هذه السن، ويخيل إلى الآن وأنا أدير عيني في تلك الأيام كأن وظيفة الآباء والأمهات كانت صرف البناء عن النظر والتفكير، والزاهم الجود ونهيمهم عن كل حركة جسمية أو عقلية. والطفل - كما تعلم الآن - أكثر ما تكون حيويته في أعضائه ، فرغبته في الجرى والوثب وما إلى ذلك طبيعة، وهو أشد من الكبار صبرا على ذلك ولجاجة فيه لقلة ما يشغله غيره ، وهو جديد في هذه الدنيا فشوقه إلى معرفتها معقول ، ومن هنا مد يده إلى كل ما تقع عليه عينه وتناولته وتقليبه وتحطيمه أو إفساده ، وليس التحطيم أو الإفساد غاية، ولكنها المعرفة ، والآباء يشفقون على أشياءهم من مغبة هذا التناول ، فيمنعون التجربة ويأخذون على المعرفة طريقها .

ولست أذكر أني هممت مرة باللعب إلا زجرني عنه واحد من الكبار ، أو مددت يدي إلى شيء إلا نهيت عن لمسه ، وما كان أصعب السكون المقضى على به ، بل ما أقل ما كان الجود يرضيهم ! فأنا إذا لعبت « شقى » ، وإذا سكنت فلا شك أني مريض ! وكان ملجئى الوحيد أنى ، هو وحده الذى كان يبدو لي أنه يفهم ! وقبلنا كنت أجالسه لأنه رجل ، والرجل في ذلك العصر ، مكانه بين الرجال لا بين الأطفال

والنساء ، حتى الأكل كان يتناوله وحده، أو مع ضيوفه في «منظرة» الرجال . حتى القهوة تصنع وترسل إليه . فهو في منزله وحده ، وكل من في البيت يخدمه حتى أمي . بل حتى أمه هو . يستيقظ أهل البيت ويكون هو لا يزال نائماً . فالكلام همس ، والسير على أطراف الأصابع ، والأطفال يحملون إلى مكان قصي من تلك الدور القديمة الواسعة لثلا توقظه ضوضاؤهم . ثم يفتح عينيه ويتثأب فينقلب السكون جلبة ، هذه تجيء بالطشت والأبريق للوضوء ، وهذه تعد الشاي ، وتلك تهيب الطعام ، وكأنما يعتمد كل إنسان أن يسمعه صوته ويثبت له أنه يتحرك في خدمته ، فالأصوات عالية ، والنداءات متتابعة ، «والبقايب» ملبوسة والأرجل تدب ، ويكون الشيء المطلوب تحت أنف الطالب فيقطع المكان ذاهباً وآبياً عشر مرات قبل أن يمد يده إليه ، ويصيح وينادي ويسأل عنه كل مخلوق قبل أن يتفضل ويراه ، ويحاسب كل من في البيت على اختفائه ويتوعد وينذر ، حتى إذا ظهر - وهو أدنى شيء منهم جميعاً - انطلق طالبه المتعamy عنه يصف الأهمال والعمى بما يفتح الله به عليه . ثم تقص هذه الحكاية بتفصيل واف شاف لأبي وهو يفطر أو يشرب القهوة على سبيل الاعتذار من الإبطاء ، عليه والشكوى من الخدم وسائر أهل البيت ، والتذمر من الدنيا وسوء الحظ فيها ، والتبرم بهذه المتعبات التي تحفل بها ساعات الليل والنهار .

ولا أزال أذكر «علقة» من أجل هذا ، وكانت أمي تطلب الطشت من الحمام والأبريق على بابي ، فاحتملت الخادمة الطشت وذهبت به ولم تر الأبريق ، فذهبت تسأل عنه خادمة أخرى أصغر منها وتصيح بها

« أين وضعت الأبريق يا ملعونة ؟ »

فقالت الصغرى فى ذلة وخوف « لم أره والله ! »

فصرخت الكبرى « كيف لم تريه ؟ لقد وضعت بيدي فى الحمام
فهل أخذه العفاريت !؟ »

الصغرى « والله العظيم والله العظيم .. وحياة النبى .. »

الكبرى « لا تخلى يا ملعونة . سيصيبك العمى يوما من الأيام من
كثرة الحلف كذبا . أقول لك هاأتى الأبريق وإلا صار يومك أسود !؟ »
أمى : بصوت عال جدا - « اجنتما ؟ ما هذه الضجة ؟ ألا تستحيان
أن تتصايحا هكذا وسيدكما فى البيت ؟ »

الكبرى : يا سيدتى لقد أضاعت هذه البنت الأبريق . وانظرى
كيف تحلف انها لم تره .

أمى : اين يا بنت الأبريق ؟

الصغرى : والله العظيم والله العظيم .. والله .. و ..

أمى : ألم اقل لك كفى عن الحلف .

ودفعتهما بيدها واطلقتهما لتبحث عن الأبريق فدخلت المسكينة
ووقفت بباب الحمام واستندت كتفها إلى الحائط ولكنها لم تبحث عن
الأبريق ، وكان بجانبها عن مسافة شبرين منها ، بل وقفت تبكى لا كما يبكى
الناس ، بل بمنجرتها دون عينيها . اعنى انها كانت تخرج مثل صوت
الباكي المولول ولكن عينيها جامدتان .

ودخلت في أثرها الخادمة الأخرى وأمی وراءها . وعلا الضجيج وكثر الكلام ، وكنت أنا أشاهد هذا كله وأرى الابريق ، ولكنى كنت مفتونا بهذا الحوار الذى يدور على لا شئ ، فلم أدلهم على مكانه ، ولو إني تكلمت لضاع صوتى الصغير ولغرق في طوفان هذه الضوضاء ، على إني لم البث أن شعرت كأن رأسى سيتهم ويعجزت عن احتمال هذه الحال ، وبدأ لى — لسوء الحظ — إني حقيق بأن يكون لى من احترام النساء للرجال حظ ولو قليلا قياسا على ما أراه من اجلالهن لأبى، فصحت بهن — وامى فى جملتهن — .

« يا للعمى ! ألا ترين الابريق وهو تحت انوفكن ؟ ما هذه الضجة الفارغة ؟ لقد أوجعتن رأسى ! » .
فكان جزائى — كما أسلفت — علقه .

* * *

نعم كان المنزل جسيم الطفل . فهو مطالب بأن يكون له عقل الكبار واتزانهم وفهمهم ، ولكنه محروم من مزاياهم ولا يعامل معاملتهم . وكل شئ يصدر عنه معيب وخطأ فاللعب عيب ، والصمت عيب ، والتهويم فى المجلس عيب ، والاراق عيب ، والاشتفهام عيب ، ولا شئ فيما يرى الطفل محمود مشكور . ماتت بنت خادمتنا — وكانت فى مثل سنى — ولم أعلم أنها ماتت — لأنهم أجلوني عن البيت وارسلوني إلى عمى ، فلما عدت ولم أجدها سألت عنها لأنى افتقدتها ، فكان كل من أستفسر منه عن اختفائها يتجهم لى وينهرنى عن السؤال لأنه عيب . فذهبت إلى أبى ، وكان حلما صبوراً رضى الخلق ، فسأله عنها فأخبرنى أنها ماتت . فعجبت ولم

أفهم كيف تجرؤ أن تموت . فسألني أبي بدوره عن سر عجيبي . فقلت له
« لأنها صغيرة » .

قال « ولكن الموت ينزل بالكبار والصغار على السواء » .
فألححت وقلت « ولكن يا أبي أنها لا تزال صغيرة فكيف يجوز
أن تموت ؟ » .

قال « يا بني لا اعتراض على قضاء الله »
قلت مصرا ، « ولكنها صغيرة وهذا عيب »
فضحك ومسح رأسي بكفه فلم أزد إلا لجاجة وقلت « يا أبي، هل تسمح
لي أن أفهمها أن هذا عيب وانها لا يصح أن تموت ؟ »
قال وقد ضجر على ما يظهر، وإن ظل يبتسم « يا بني كيف يكون الموت عيباً ؟ »
قلت مستغرباً - اليس الموت عيباً ؟
قال « كلا . أنها آجال » ،

فأعجبني أن يكون الموت آجالاً وطربت جداً . ودنوت منه ووضعت
كفي على خدي وقلت وقد خيل إلى أني ظفرت بملهاة جديدة « اذن ليس
من العيب أن أموت أنا أيضا » ،

فصاح بي « أعوذ بالله » واكفهر وجهه لا أدري لماذا « اياك أن تقول
كلما كهذا مرة أخرى » ،

لا أدري لماذا ! ... لقد فهمت .. ولكن بعد سنوات، ترى الم يكن
في الوسع اختصارها .

وصار لي اخ صغير . لم اره حين جاء لاني اجمليت عن البيت، فلم أكن

في استقباله . ولما عدت وأخبروني وسألت عنه من أين جاءوا به قالوا، أو فهمت أنا منهم ، أنه من عند الله ، وأن الله هو الذى يرزق الآباء، فاقننعت ورحت بعدها أتوقع أن اتلق كل يوم من عند الله اخا جديداً وسامنى أن يرزقنى الله اخا لا اختا

فسألت أبى :

- لماذا لم يرسل الله لى اختا بدلا من هذا الاخ ؟

قال - هذه مشيئة الله ولا حيلة لنا فيها

قلت - ولكنى أريد اختا ..

فقال - دع الله

فلبثت بعدها أدعو الله ولا سيما قبيل النوم ، وكنت أتوقع فى كل مرة أن أصبح فأجد الأخت المرجوة تحت السرير أو فى الدولاب أو بجانبى ، ولكن الله لم يستجب لى قط

وكان فى البيت اثنان لا اراهما أبدا وان كان ذكرهما على لسانى أبى وأمى، وهما « الست » و « الافندى » فأبى يقول للخادمة مثلا قولى كذا أو كذا « الست » ، ويتحدث فى أوقات شتى ولا سيما حين يكون معه رجال من اقربائنا عن هذه « الست » ، وأمى لا تفتأ تقول « الافندى قال - أو الافندى أتى - أو الافندى خرج » فأعجب اين هما ؟ ولماذا لا اراهما ؟ وأصعد إلى السطح باحثا عنها فلا أجدهما ، وادخل كل غرفة فلا اهتدى إلى اثرهما ، وأنزل إلى فناء الدار فلا التقي بهما . اين يتامان ياترى ؟ ماذا يأكلان ؟ الا

يظهر ان أبداً؟ وعلى كثرة ما فكرت في أمرهما وبحشت عنها لم يفتح الله على بخير من «انها لا محالة يلبسان» طاقية الاخفاء»، ولشد ما كان يلج بي الشوق الى رؤيتهما، يدركني العطف عليهما أيضاً! وكثيراً ما كنت أقوم من النوم على صوت - لعله موهوم - فأتخيل انهما داخلان، وأرهف سمعي وانشر أذني في الليل وأفتح عيني جداً وأحدق في الظلام، وقد قمت على ذراع، وربما تسلك الى كل غرفة لعل أبصرهما، ناسياً في سبيلهما مخاوفي وما تثيره الظلمة، في نفوس الاطفال.

واتفق مرة انا كنّا جميعاً جلوساً في غرفة ابي وكان مريضاً - فدخلت الخادمة فأمرت شيئاً إلى أمي فقالت لها هذه «اخبريه أن الافندي مريض» فصعدت وروحي إلى حلقى وشعرت بالاسف على «الافندي» والالم له، والفرح أيضاً لأن مرضه قد يتيح لي أن أراه أخيراً..

ودنوت من أبي - وكنت عليه أجراً، فابتسم لي ومد يده فوضعتها على كتفي فاطرقت برهة ثم رفعت عيني اليه وقالت -
«بابا»

قال «نعم» وجذبني اليه في رفق وعطف
قلت «كيف صحه الافندي»

فضحكوا جميعاً - ابي وأمي وجدتي وعمتي و... لا أدري من أيضاً. وقبلني أبي، ولكنه لم يجبني لاهو ولا سواه. فلم أفهم هذا، وأحسست بالغيب، ورحت أنظر في وجوههم نظر المحتق. ثم تولاني العناد، فعدت إلى أبي أسأله عن صحه «الافندي»، فنظر أبي إلى أمي فتناولت هذه يدي وقالت «عيب الاولى كانت عفوا. وقد فانت ولكن لا يليق أن تكررهما»

فكذت أجن . لماذا يخفون عني الافندي والست وهما يراهما كل إنسان
سواي ، ويحادثهما على ما يظهر لي بما أسمع ؟ لماذا أحرم وحدي أن
أبصرهما وأكلمهما

فقلت « ولكنني أريد أن أرى الافندي »

فقال أمي « عيب قلت لك عيب »

وفي هذه اللحظة دخل جدي على مهل ، ويظهر أنه سمع أمي تنهرني وكان
شديد الخنو على فسأل « ماله ؟ »

فقصوا عليه الحكاية . فابتسم وأجاسني على ركبتيه ولم يزل بي حتى
سرى عني ، وجفت دموع الغيظ التي كانت تترقرق في جفني فشرحت له
المسألة وكشفت له عن جهودى التي بذلتها في الاهتداء إلى . « الست
والافندي » ولم يبق في الغرفة أحد لم يضحك مني . ولكنني كنت فرحا
باصفاء جدي وتشجيعه لي ، وما كان يبدو على وجهه من الاغباط والجدل ،
فلم أعبا بالضحك ، ولما فرغت سألته « والان هل ستخفيهما أنت أيضاً
عني ؟ »

قال « لا . لقد أخطأوا معك يا بنى . وكان حقهم أن يدلوك »

واستغنيت بعد ذلك عن البحث والتقيق فقد عرفت « الست
والافندي » وضحكت أيضاً لما عرفت هذا .

مقتطفات من مذكرات حواء

(تنبيه) هذه المذكرات موضوعة على نسق (مذكرات آدم) للكاتب الأمريكى مارك توين (سامويل كيميز) وهى تشبهها فى الاسلوب الفكاهى، وقد جاريته فى أشياء لم أدر كيف أخالفه فيها ، مثل إنكار آدم أن حواء مخلوقة من ضلع من جنبه ، واستغرابه بكاءها — والبكاء أشبه بالانوثة — وعدم فهمه الامومة ألخ . ألخ . وقد أردت أن أمثل بهذه المذكرات لما يأتى :

أولاً : أن الخلود يتمتع معه الاحساس الجنىسى ، وأن قضاء الموت هو الذى يثير هذا الإحساس وينشئ غيره أيضاً .

ثانياً : أن المرأة مخلوقة للنوع فالغريزة الجنسية فيها أقوى منها فى الرجل .

ثالثاً : أن المرأة أقدم معجم للغة ، فهى التى وضعت الاسماء ونحنت واشتقت وصقلت الالفاظ بكثرة الاستعمال .

رابعاً : أن الخجل من مقتضيات المعرفة والإدراك .

خامساً : أن الامومة أقوى وأبرز من الأبوة ، لأن المرأة هى الاداة لحفظ النوع .

وقد تناولت هذه المعانى من قبل فى مقالات عدة ، نشر بعضها فى

(حصاد المهسيم) مثل (الجلال فى نظر المرأة) و (مقتضيات الخلود)
وفى (قبض الريح) مثل (المرأة واللغة أول معجم وأقدم ديوان)
ومقالات أخرى نشرتها فى (السياسة الأسبوعية) ولم تجمع بعد فى كتاب .

١ - فى الجنة

السبت . وجدت أن ما أغراني به آدم من كتابة المذكرات اليومية
قد شغلنى عنه ، وأتاح له أن يطوف فى الجنة وحده ، وهو لا يفتأ يصبحنى
بالسؤال عن مذكرات اليوم السابق هل دونتها ، وينصح لى بأن أكتبها
قبل أن أنسى ما حدث ، ولا أكاد أشرع فى الكتابة حتى أراه ينسل
ويذهب لا أدرى إلى أين ، ومن أجل هذا عقدت النية على ألا أكتب
إلا فى الليل بعد أن ينام .

الاثنين : آدم لغزلا أكاد أفهمه ، لم يكن يعرف حتى أن اسمه آدم ،
ومن قوله أنه لا يشعر بالحاجة إلى اسم ما ، ولما قلت له يوما إن اسمى
حواء قال (ربما !) أليس هذا منه عجيبا ؟ وأعجب من ذلك أنى قلت له
أن عليه من الآن فصاعدا أن يدعونى باسمى ، فانه أعذب فى أذنى من
(هـش هـش) التى لا يزال يفتح فمه بها على ، فقال أنه يقصد — حين
يصيح بى (هـش هـش) ، أن أذهب عنه لا أن آتى إليه ، وأنه
لا يحتاج أن ينادينى أو يدعونى لأنى لا أكاد أفارقه ، فمن العبث أن يكون
لى اسم إذا كانت فرصة استعماله لا تعرض أبداً ، فلما احتججت عليه بأن
لكل شىء فى الجنة اسمه الذى يعرف به ، زعم انى أنا التى اخترعت هذه

الاسماء وأطلقتها على مسمياتها ، وأنه لا يدري لماذا اجشمه حفظ هذه
الاسماء كلها وتصديع رأسه بها ، وزاد على ذلك أنه لا يرى هذه الاسماء
منطبقة على الأشياء أو موافقة لها ، ودليله على هذا أنه ما من حيوان
يجبني حين أدعوه باسمه ، ولكن هذا مع ذلك لا يعنيه ، وإذا كان يروقني
أن أكلف نفسي مشقة التسمية فانا وما اخترت لنفسي ، غير أنه يرجو
منى إلا اشركه في هذا العبث .

وهذه أول مرة سمعت من آدم مثل هذا الكلام فخر في نفسي وآلمني
فبكيت وتوجعت ، ولشد ما كانت دهشتي حين نهض آدم ودنا مني
ورفع وجهي إليه وجعل يتأمل عيني ! بل لقد هم بأن يضع أصبعه في
عيني ، فنجيت يده عن وجهي وقلت له وقد غيض الغيظ والغضب عبراتي
« ألا تكفيك قسوة لسانك حتى تريد أن تفقأ عيني ؟ » .

فادعى أنه لا يفهم كلامي وزعم أنه إنما كان يبغى أن يرى من أين
يجيء الماء الذي يسيل من هذين الثقبين في وجهي . وقال أنه لم ير حيوانا
آخر غيري يفيض الماء من ثقب وجهه ، فصدف عنه وبني من الألم
مالا أحسن وصفه . فلم أر أنه عبي بصدى عنه شيئا ، وطال انتظاري أن
يعود إلى يعتذر ، فخرجت من الكوخ أطلبه فالفيتة ممسكة هرة يحاول أن
يمصر لها عينها وهي تجاهد تريد التخلص من قبضته القوية ، فاخبطتها
منه وسألته (ما هذا الذي تصنع ؟) .

فلم يجبني على سؤال ، ورفع إلى وجهها قرأت في أساريره الدهشة
والملل وقال : « هاها ؟ أو جئت ورأى ؟ » .

فاعدت عليه السؤال فكان جوابه أنه أراد أن يعرف من أين يجيء الماء إلى هذه الثقوب التي أسميها العيون . فأيقنت أنه لم يكن يروم أن يفقأ عيني ، و صفحت عنه وزدت تعلقا به .

الثلاثاء : لا يزال آدم يضحك مني كلما خرجت إلى البركة لأنظر فيها إلى نفسي ، ولا سيما بعد أن وقعت فيها وأنا أتأمل خيالي في صقالها . ليته ينظر في مائها الصافي مرة . اذن لكف عن هذه السخرية . وما أنسى يوم قتت فألفيتني راقدة في ظل وارقة الاظلال لقاء ، وكيف ذهبت أعجب لنفسي : من عسى ان اكون ؟ واين انا وماذا جاء بي إلى هنا ؟ وكيف كان ذلك ؟ وكان على مقربة مني كهف يتدفق منه الماء إلى بركة . فقصدت إليها وانطرحت على بساط الروض ، وجعلت أنظر في الماء وإذا تحت عيني — في جوف الماء — صورة تنحني وترمقني ، فتراجعت فارتدت مثلي ، فعدت أنظر ، فعادت تحديق في وجهي بعينين جميلتين يفيض منهما العطف والحب ، فلو لا صوت رحيم هفا به النسيم إلى « ان ما ترين ليس إلا صورتك وخيالك » ، لما انصرف عن الماء إلى هذه الساعة ، وان آدم لقوى وجميل ، ولكن ذلك الخيال الذي يترامى لي في الماء الين واعذب .

الخميس : كل يوم يبدو لي من آدم خلق عجيب . كنت الومه واشكوه إلى نفسي وأؤنبه على هروبه مني واختفائه بين الأشجار ، وأقول له فيما أقول « اني انسى كل شيء حين اكون معك ، حتى الجنة لا اباليها ولا احفل ما فيها ، وان نسيم الصباح حين يهب بأصوات العصافير اللذيذ ، وانه ليس

اطيب من ربا الأرض بعد ان يجودها من السماء هاضب ، ولا ارق من
مقدم الليل علينا بنجومه الزهر وقره السارى ، ولكن ما من شيء فى
الأرض ولا فى السماء يروقنى او يفتننى إذا لم تكن معى . فالعجب لك
كيف تطاوعك نفسك على بجافاى والفرار منى وانا بعضك ؟ .

ففتح عينيه جداً وقال « بعضى ، ماذا تعنين ؟ » .

فقلت : « نعم بعضك ! الست قد خلقت من ضلع فى جنبك الايسر ؟ »
فوثب إلى قدميه وقال :

« من ضلع فى جنبي ؟ من قال هذا ؟ »

قلت « انها الحقيقة » .

فرفع يده إلى صدره وجعل يمر بأصابعه على ضلوعه ويتحسسها بعناية ،
ثم نظر إلى وقال : « هذا غير صحيح . أن ضلوعى كاملة لا نقص فيها
وقد عدتها أمامك »

الجمعة - قال لى آدم إن فى هذه التى اسمها « جنة عدن » أشياء كثيرة
تسترعى النظر والسمع أيضاً ، ولكنى لا أنتبه إليها لأن لسانى لا يكف
عن الدوران ، وأضاف إلى ذلك أنى أنا المخلوق الوحيد الذى لا ينتفع بعينه
وأذنيه . وانى أفسد عليه الطواف فى « الجنة » وأحيل المقام فيها كالمقام
فى « ذلك المكان الآخر » .

وقداغتنمت هذه الفرصة ونهت آدم إلى أنى « أتى » ، وإن عليه أن
يكف عن مخاطبى أو الإشارة إلى بضمير المذكر ، فبرز رأسه وقال : أنه

يشك فيما أقول، ولكن الأمر لا يعنيه وإنه سيتحرى مرضاتي ما دام إن هذا يسرنى، عسى أن يكف هذا الرضا من غرب لسانى الذى لا ينفك يعترض .

السبت - لم أكن أنوى أن أكتب اليوم شيئاً . ولكنى عثرت بقصاصة بخط آدم قرأت فيها هذه العبارة « لقد كانت أيام الأسبوع كلها جمعاً قبل أن يأتى هذا المخلوق الجديد الذى ننى غنى الراحة وهذوه اليال . . »

« بقية الكلام رديئة . ويظهر أن حواء كتبت تعليقها على عبارة آدم بسرعة وانفعال . على أنى مع هذا استطعت أن أقرأ الكلام ولكنى اعتذر للقراء فانى ، أعلى بأبيننا الشيخ عينا وأعطق اجلالا له من أن أسمح بنشر ماخطته أمنا المسكينة عنه فى ساعة من ساعات الغضب . »

الأحد - مواظبة آدم على الكتابة تدهشنى ، وتعليله لذلك ابعث على الدهشة . فهو يقول إنه يقتل الوقت بذلك وينفى عن نفسه الملل . الملل حقاً ؟ أأست معه أوئسه ؟ .

الثلاثاء - كان اليوم مطيراً عاصفاً فامتنع آدم عن الخروج من الكوخ، فتركته ومضيت إلى البركة غير أن المطر المنهمر شوه صورتي جداً ، فأنكفأت عنها آسفة ، وأدركنى العطف على جرو صغير وجدته فى طريق فحملته معى إلى الكوخ ، ولم أكد أدخل حتى انتهرنى آدم وأنبنى على ما يسميه حماقة الخروج فى مثل هذا الجو والرجوع بقديمين مثقلتين بالأوحال وتوسيع الكوخ بها . ثم سألتنى عما أحمل

فقلت له إنه جرو صغير أشفت عليه من المطر والبرد . فقال « لست أفهم هذا الولع بالحيوانات الصغيرة وضمها إلى صدرك وتقبيلك أياها ومناجاتها بأصوات لا معنى لها ، وازعاجي بعوائها ونباحها وموائها . » ثم انتزع مني الجرو وقذف به إلى الخارج .

الأربعاء - لست أنسى ما عشت نظرة الاحتقار التي رماني بها اليوم آدم . كنت عند شجرة تين أقذف ثمرها بالحجارة . وحانت مني التفاتة فإذا آدم يرشقني بهذه النظرة فكأنه سمرني بها إلى الأرض ، ثم دنا مني وهو يقول « هكذا ترمين ! » وتناول حجراً وراح يقلدني ويتثنى ويتعوج ويلقى الحجر فيقع عند قدميه . وبعد أن شبع من الزاينة على والسخرية مني اعتدل وقال « هكذا يجب أن تفعل ، وسدد ساعده القوى وقذف الحجر فانطلق من يده يقول « فووو » وهوى ، التين إلى الأرض وتركني ومضى .

الخميس - يقول آدم إنه أخطأ حين علمني (الرماية) كما يسميها ويزعم أن تعليمه إياي أغرائي بأشجار الفاكهة وإني الآن أفرط في أكلها وإننا مهددون بنفاد هذا الغذاء أو (بالقحط) كما يقول على طريقته في المبالغة . وإنه على أى حال لا يتوقع خيراً من وراء حبي للفاكهة . السبت - مر اليوم بلا حادث يذكر سوى إن آدم وجدني أتسلق الشجرة المحرمة فجذبني بعنف وحذرني من الدنو منها .

الأحد - قتت من النوم فلم أجِدْ آدم فذهبت أبحث عنه فلم اهتمد إلى مخبئه . وهذه رابع مرة يهرب فيها مني . فعدت إلى الكوخ متعباً وارتيمت

على الفراش الذى صنعت له من ورق التين ، إلا فى سبيل الله ما كلفت
نفسى من أجله ! :

الاثنين - لا يزال آدم هارباً وقد حفيت قدماى . واقلقنى هذا
الغياب الطويل الذى لا عهدى ولاله به . أترأى ضل الطريق ؟ انه غريب
الأطوار فلا يبعد أن يكون قد خرج من الجنة

الاثنين - بعد أسبوع كامل قضيته فى البحث وجدت آدم فى أقصى
الشمال . لقد بنى له كوخاً صغيراً هناك : له الله فلولا الحية دلتنى على
مكانه ... ولكن صبراً .

الثلاثاء - لم أكن احسب ان الحية تتكلم وتا الله ما أطيبها وأعذب
لسانها واحلى حديثها . لا اكاد اضمها الى صدرى حين يصافح سمعى قولها
« يافتنة الدنيا ويا أجل ما فى السموات والأرض ويا ام البشر » ولكن
آدم يكرها ويخافها ويحذرنى منها ، ويقول انها نذير سوء وان كان لا يكتمنى
سروره بان وجدت من يحادثنى غيره .

الأربعاء - كان آدم يتمشى اليوم وهو مطرق ويداه خلفه ويتمتم بكلام
غير مسموع وليست هذه عادته فما رأيتة يفعل ذلك من قبل . فتواريت
خلف شجرة أراقبه ، فلما دنا منى سمعته يقول لنفسه « وماذا اخشى من
الموت اذا أكلنا من الشجرة وحل الموت فى الدنيا ؟ ان الموت مرغوب
فيه من اجل بعضهم على الأقل »

فن بعضهم هذا ؟ سأسأله عنه .

الخميس - قالت لى الحية انها لم تكن تتكلم ولم يكن طاعق ولكنها

مرت بشجرة استطابت راثمتها فصعدت إلى أثمارها والوحوش ترمقها
وتمد أعناقها فتقتصر عن بلوغ الثمر ، وكانت جائعة فالتهمت منها ما لا
يحسب الحاسب فتغير كل شيء في عينها ، ووجد لسانها السبيل إلى الكلام ،
وان كان قد بقي لها شكلها ، فوجهت عقلها إلى التفكير والتدبير في كل ما في
السماء والأرض وما بينهما وازدادت إلى ذلك - شكرأ لها - ان كل ما في
الدنيا من خير وجمال يجتمع في وجهي الملائكي ، وانها لم تر لي نظيرا وان
هذا السحر الذي في عيني هو الذي جرأها على الظهور لي واغراها بادمان
النظر إلى . فسألتها عن الشجرة أين هي فلما دلتني عليها إذا بها الشجرة
المحرمة ، فأنبأتها بأن ثمرها محرم علينا . فأعربت عن استغرابها بأن تحرم
علينا فاكهة الجنة ، فبينت لها ان لنا ان نأكل ما نشاء من فاكهة الجنة
ما خلا ما تحمل هذه الشجرة والا كتب علينا الموت . فقالت الحية كلاما
كثيرا معجبا مطريا شربته اذناى بلهفة ، فجعلت ارمق الشجرة ، ومنظرها وحده
غواية ، وفي اذن من الحية عدوبة حديثها ، ومضى الوقت وأنا أستمع
إلى الحية وارى الشجرة موقرة بحملها الناضج واشم عبقة الطيب . وعرضني
الجوع فامتدت يدي إلى الثمرة فقطفت واحدة ثم ثانيه ثم ثالثة
فتفتحت ، عيناي وابصرت العرى الذي انا فيه ، وقلت لنفسى في اية
صورة ابدو لادم ؟ اؤنبته بما وقع لي وطراً على من التغير واشركه معي ؟
ام انفرد دونه بالعلم واسد بذلك النقص الذي منى به جنسى حتى اساويه
وربما فقتة ، فاني ارى ضحني يسترقني له ؟ وهذا حسن ، ولكن الله هو
الذي رآني وعلم اني عصيته ؟ والموت لا بد آت بعد ذلك ولا مهرب منه
الآن ، وهكذا سأذهب أنا ويخلق الله لآدم حواء أخرى تعيش معه وتسعد
بجواره . كلا . كلا . لاني أحب آدم واستطيع أن احتمل كل صنوف

الموت معه ، ولكنى لا أقوى على الحياة بدونه .

وثبتت خطواتى إلى الكوخ ولكنى لم أجد آدم ، فدرت فى الجنة أبحث عنه فلم أعثر له على أثر ، واضطرت إلى الاختباء مراراً لأن الوحوش كانت تتقاتل ويأكل بعضها بعضاً ، ولم تعد تطيعنى كالعهد بها ، ففررت من الجنة بعد أن اختل فيها الأمن واضطرب حبل النظام ، واصبحت الأمور فيها فوضى ، وجاوزت حدودها إلى الأرض .

الأربعاء - بعد أربعة أيام طوال وجدت آدم فألقيت عند قدميه الغصن الذى قطعته من الشجرة المحرمة مثقلاً بالتفاح الشهى ، فنظر إلى نظرة استغراب وسألنى عن هذا الورق الذى أستربه جسدى فقلت شت تعرف هذا متى أكلت من التفاح ، فانتزع منى وعرانى فخلجت فقال : لقد علمت أنك أكلت منه فقد هاجت الوحوش وهمت بأكلى ، فركبت حماراً فارها لم يزل يعدو بى حتى عدا عليه نمر فنجوت بجملى ولما أكد ، ورأيت المقام فى هذه الجنة مستحيلاً فخرجت منها وسيان عندى الآن أن آكل أو لا آكل فهاتى ما عندك فأتى جوعان .

وقضم قضمته وجعل يتذوقها ويقول ما أطيبها والله وإن كانت فى غير أوانها . ثم نظر إلى نفسه فأدرك أنه عار واستحيا فستر نفسه بالورق الذى نزع عن جسدى ونظر إلى ثم أرخى طرفه وهو يقول « ماذا تعنين بالوقوف عارية هكذا ؟ اذهبي واسترى نفسك » ففعلت .

الخميس - اعترف لى آدم بأنه كان لا يحسن معاملتى ونحن فى الجنة وقال إن عذره هو أن المرء لم يكن يستطيع أن يحسن شيئاً فى تلك الجنة

وقد كان يخشى ألا الحق به ويتوقع أن تضنيه الوحدة وتسقمه الوحشة
وقبلى « وعرفنى ، لقد خسرت الجنة ولكنى ربحت آدم ...

٢ - بعد الخروج من الجنة

الثلاثاء - تالله ما أفسى آدم فى هذه الأيام ! إنه لا يفتأ يعنفنى ويلعننى
ويحمل على من أجل أن أكلنا من الشجرة المحرمة وخرجنا من الجنة ، وهو
هو الذى اتنى على ذوقى لما أطعمته من التفاح ، وقال لى فيما قال « هاتى
ما أطيب هذه الفاكهة التى حرمانها ، وإذا كان هذا طعم ما حرم علينا
فليت الشجرة المحرمة كانت عشراً ٤١ ! وهلم بنا نلعب بعد هذا الطعام
الشهى ، فإعرف جمالك قبل اليوم ألعب حراسى كما يفعل الآن ، .

ولم يدخر نظرة حب ولا تجميشة غزل ، وأعدائى وأهبنى فقاذفته
ناراً بنار ، ثم تناول يدى ومضى بى إلى غدير ظليل الشاطىء فاضطجعنا
على البساط السندسى ، وثرنا حولنا وتحتنا وفوقنا عبق الزهر - الفل
والياسمين والزرجس والقرنفل - وروينا من الحب ، ثم عقد النعاس اجفائنا
فمننا ملء عيوننا . وباليتمنا لم نعلم ! فقد غدا على يلومنى ويتوجع عما صار
إليه ، ويحن إلى ما كان فيه ، فقلت له أنه لو كان مكانى لفعل مثلى ، وذكرته
بأنه كان فى الجنة يرمى إلى بالزمام ويلقى حبلى على غاربى ، وسأته لما ذا
تركنى أفعل ما بدا لى ولم يأمرنى - وهو الرجل وأنا المرأة - أن أجتنب
الشجرة ولا أقربها لقد كان سلوكه مغرياً لى ومشجعاً على اقتطاف هذه
الثمرة المحرمة .

فتأربى بلعنى وبقول : أهذا جزاء حبى لك أيتها المرأة الكنود ؟
الم يكن يسعنى ان اءءك وءءك للموت الذى جلبته على نفسك، وأن
انجو بنفسى فلا اتبعك ؟ اما والله لانت والحية سواء، وأئك لألام منها
وابغض، وما ينقصك إلا ان تكونى على مثل صورتها والوانها لىءءرك
الءلائق جميعاً ولتتقبلك ولا تغتر بصورتك الساوية إلا لماذا شامت
ءكمة الله ان يءلق هذه البءعة ولم يشأ ان يءلق الناس كلهم ذكرانا
ويعملاً الدنيا بهم إذا كان لا بء من ءلقهم ؟ ،

فبكيت واسترءمته وعكفت على ركبتيه اقبلهما وامسح عليهما وحبى،
فرئى لى ولان لى قلبه ، قلتشءمت واءليت إليه برأيين يكفلان لنا الراحة
ويقيان ذريتنا المصائب التى كءبت عليهم بءنبننا. فسألنى عنهما فقلت
- الرأى عنى - ما ءام الموت لامفر منه الآن - ان نلتءر ، فنستريح
ونترك الدنيا كما كانت، لايءمرها اءء من نسلنا، او ان تءرى ألا نءى إلى
الدنيا بنسل ، فنءرم الموت ءقه ونقضى عليه هو بالموت جوعاً .

فقال آءم : يا بلهاء أءءسبين أن الله يتركنا نفعل شيئاً من ذلك ؟ لءء
أءرءتنا مشورتك من الجنة وهوت بنا إلى هذه الأرض ، فأين ياترى
تقءف بنا مشورتك الجديدة ؟ إءهى . إءهى !

بعء شهر - لست اممل التءواب فى هذه الغابة الكئيفة . فإن لها
لسءراً شءيبء الاءء . وءء ضللت فيها أمس وإن كنت لم أبءء عن
السكوء أكثر من فرسخ ، فنشط ءيالى وراح يربى أشباحاً ههنا وههنا
بين الأشجار الغليظة الءاهبة فى الهواء التى ءءبب الشمس فلا ينفذ منها

شعاع . فوقفت برهة أفكر وأتخيل وأشرب نفسى روح المكان، فنق
 فوق رأسى غراب ففرعت ثم غضبت على نفسى ، لأنى فرعت ورفعت
 طرفى فأبصرت الغراب على غصن فوق يصوب نظره إلى، فاستحييت أن
 يراى كأنما كان قد فاجأنى فى خلوتى ، فخدجته بنظرى فخدجنى بنظره ،
 ولم يحول منى عينه ، وكان كلانا صامتاً لا يقول شيئاً ، ثم تقدم الغراب
 يضع خطوات على الغصن ليكون أقدر على تأملى ، ورفع جناحيه ودلى
 رأسه من بين كتفيه ، ونعق مرة أخرى نغمة أحسست أن لهجتها مينة
 مبطنة بالزراية، فلو أنه كان يتكلم مثلى ومثل آدم ومثل الحية لما قال لى بأفصح
 مما قال ، ماذا تصنعين هنا بالله ؟ ، وليس هذا من شأنه ولا كانت هذه
 الغابة له ، وما من حقه أن يخاطبنا بمثل هذه اللهجة ، ولكنى لم ارد عليه
 استنكافاً منى للنبأ بذه مع غراب اسحم ، وترفعاً عن المباشرة معه ، فلبث
 برهة يدير عينه فى ، ورأسه ممدود إلى من تحت كتفيه ثم قدفنى باهاتين
 اخريين لم افهم معناهما على وجه الدقة ، وان كانت دلالتهما واضحة . فلم
 أشأ أن اجاريه فى بذاته وامسكت عن دفع الاهانة . ويظهر ان حلى
 أطمعه فقد رفع رأسه واطلق فى الغابة نغمة تليذت انها نداء فقد اجابه
 غراب آخر من قلب الغابة ، وراح ذاك يسأل وهذا يشرح له الموقف ،
 حتى ترك الغراب المدعو ما كان فيه وطار إليه وحط إلى جانبه فوقى ،
 ومضى الغرابان الاسودان يتناعبان عنى ولا يحفلان وجودى ، فلو انى
 كنت بعيدة عنهما بحيث لا اسمعهما ولم اكن تحت اعينهما لما اساء الادب
 فى حقى إلى هذا الحد ، فخرت وارتبكت ، ثم بدا ان ادعهما وامضى فى سبيلى
 واحسب ان الغرابين الوقحين قد سرتهما هزيمتى فقد مطا عنقيهما وراحا

يضحكان مني ويرسلان خلقي الشتائم والإهانات حتى تواريت عنهما .
وإني لأعلم انهما غرابان لا أكثر ، ولكنه من المؤلم على كل حال ، بل
بما يكوى غرور الإنسان أن يرى حتى الغراب يهزأ به ويتماجن عليه
ويصيح به « ما أطول شعرك ؟ » أو أليس لك ثوب تلبسينه غير هذا
الجلد القديم ؟ ارفعى ذيله فانه يكنس الأرض ويثير الغبار .

ومن الغريب أني ألفت نفسي عند باب الكوخ قبل أن أفكر
في الطريق الذي أسلكه ، وهكذا اهتدت رجلاى بعد أن ضل رأسي .
لقد كنت أهم بالبكاء ولكن فرحى بالرجوع سالمة أنساني الدموع .

بعد أسبوعين — آدم يحمل على ويرهقني بالعمل ويكتفى هو منه
بالإشراف . ولا أدري ماذا يكلفه ، الاشراف ، ولكن الذي أدريه إني
مستعدة أن أقوم به عنه وأن أدع له ما أنا فيه ، وقد ثقلت وأراني أميل
إلى التمرد ، وسأدعى المرضى غدا فإن لم تصلح الحال بعد فسأهرب واخفى
في بعض الادغال ليعرف قدرى .

بعد خمسة أيام — هربت ثلاثة أيام ثم لم أطلق البعد عنه فرجعت
إليه وادعيت اني كنت تائهة ، وقلت اني منهكة ، ولا أكاد أقوى على النهوض ،
فخرج آدم متذمراً وغاب عني اليوم كله فكذبت أجن من الشوق إليه ،
وتبت من ذنبي واعترفت له بالحقيقة .

بعد ثمانية شهور — سميتة قابيل ، وهو حلو أحمر لاشعر عليه غض
اللم وأكاد من فرحى به وحبى له أكله . وكان آدم قد خرج للصيد
فلما عاد بعد أيام سألتني عنه ما هو ؟ فلم أدر كيف أقول وحلته إليه

وأذنيته من فمه ليقبله، فظن أني أقدمه له طعاماً، ونحى وجهه وصدني بيده
وقال: أوحش أنا حتى أكله حياً؟ ولما قلت له أني «وضعت»، وأنا عائدة
إلى الكوخ لم يصدقني وزعم أني «وجدته»، وقال إن به مشابهة مني ولكنه
صغير جداً فهو على الأرجح حيوان جديد، وتناوله وجعل يقلبه ويفحصه
فبكي وصاح فاخطفته واحتملته وضممته إلى صدرى ولاطفته حتى ثاب
إلى السكون.

ولما جاء الليل وبكى زعم آدم أن من الحماقة أن أسجن هذا الحيوان
معنا، وأنه إنما يبكي ويصيح ويخرج هذه الأصوات المنكرة لأنه يريد
أن يعود إلى جماعته، وهم بأن يلقيه خارج الكوخ فعدوت ورام وصدته.
فقال آدم إنه لا يفهم سلوكى هذا وإنه لم يألف منى هذه العناية
بالحيوانات الأخرى.

من مذكرات آدم

«لقد تغيرت حواء حتى لا أكاد أنكرها، مذ وجدت هذا الحيوان
الغريب الذى قضيت قدماى على غير جدوى فى البحث عن واحد آخر
من مثله، فبى لا تخرج الآن للصيد أو للاحتطاب ولا تكاد تعنى حتى
باعداد الطعام. ولا تخطو خطوة إلا وهذا الحيوان الغريب مضموم إلى
صدرها أو محمول على كتفها، وهو لا يكلفنا شيئاً لأنه لا يأكل ولا
يشرب، وهذا أغرب ما فيه. وأحسب حواء قد جنت فانها لا تقتأ من
حين إلى حين تلقمها نديها فيعكف عليه بفمه الفارغ كأنه يأكل ولا

شئ هناك، فليس أجن منها سواء ! وما أغرب منظرها وهي تداعبه وتناجيه وتوهمه أنها تعض أنامله فيضحك ، ولم أر قبل هـ هذا حيواناً يضحك . لقد حيرني جدا هذا المخلوق العجيب الذى تسميه حواء (قاييل) والذى لا أدرى ماذا هو ؟ فهو ليس منا إذ كان لا يمشى مثلنا ولا يتكلم ، وليس من الطير فما له أجنحة ثم هو لا ينهض فكيف بالطيران ، وليس من الحيوان فان جلده أملس لا شعر عليه وليس له ذيل ، وأكثر ما أراه مستلقياً على ظهره ورافعاً رجليه فى الهواء ، ولست أفهم لغته ، ولكن حواء تزعم أنها تفهمها وتجيبه إلى ما يطلب فيكف عن الضياح ويضحك وينام ، أما أنا فقد تقطع نومى مذ جاءتنا بهذا اللغز ، سأعافلها يوماً وأسرقه وألقيه فى الغابة أو فى الغدير فإنى فى شك منه عظيم .

بعد بضعة شهور - لا أزال عاجزا عن فهم هذا اللغز الذى كنا فى غنى عنه والذى يشرد عنى النوم ، ولم استطع أن أسرقه لأن حواء لا تترك لحظة وقد نما بسرعة فصار خمسة أضعاف ما كان عليه لما جاءنا ، وكان فى أول الأمر لا ينفك مستلقياً على ظهره فالآن يحبو على يديه ورجليه وقد يباغتنى وأنا نائم فيضع يده الصغيرة فى فمى أو يقبض على أنفى أو يجذبني من لحيتى ، ليست حواء وحدها المجنونة فسيالحق بها سواها قريباً ، ولقد أشفقت على هذا اللغز وقلت آتية برفيق يؤنسه فى وحدته ويسليه فى غربته بينما جفمت بدب صغير ولكنه لم يكسد يراه حتى ريع وملا الدنيا صياحا فلم أجد بدا من طرد الدب ورده إلى حيث كان .

أى شئ هو ؟ هذا ما يحيرنى !! هو قط ؟ لا ! أو دب ؟ لا ! أو قرد ؟ ربما ، ولكن أين الذيل ؟ والشعر ؟ سنرى .

بعد شهور أخرى - لا يزال هذا اللغز ينمو وهو الآن يقف على قدميه الخلفيتين ويمشي خطوات ثم يقع ، وقد ظهر الشعر في رأسه وهو كشعرنا نحن لولا أنه انعم وأخف وأقل سوادا وألين ملمساً ، وكنت أتوقع أن يظهر له ذيل ولكن خيب أملى . وأقول الحق لقد بدأت أخافه فإن هذا النمو الشاذ الذى لا عهد لى به فى حيوان آخر يوقع فى روعى إنى لم أر آخر هذه الحكاية . وما يدرينا غدا ماذا يكون منه ؟ وقد رأيت أن الأحزم أن أنام خارج الكوخ من الآن فصاعداً ، وأن أدع حواء وحدها معه ، وليس هذا من الشجاعة والمروءة فى شيء ، ولكن ماذا أصنع وهى لا تريد أن تفرط فيه ولا ترضى أن تعاض منه دبا أو قردا ؟ فعليها إذن أن تحتمل وحدها عواقب طيشها وحقاقتها .

بعد أربعة شهور - عدت من الجبل بعد غيبة طويلة فألفيت اللغز يمشى على قدميه مثلنا ويذهب حيث يشاء وحده وينطق بما يشبه كلامنا فيقول دبابا - ماما - أو ممو ، فهل علمته حواء ؟ لا أدرى ، وقد نبتت له أسنان ولم ينبت الذيل . ولما كنت سأعود إلى الجبل غدا فساشير على حواء بأن تكلمه .

بعد خمسة شهور أخرى - فى كل تطوافى وتجوالى فى الجبال والغابات والأدغال والأودية والسهول لا أعر على ند لهذا اللغز ، وحواء تجد فى الكوخ - نعم فى الكوخ ومن غير أن تنقل قدما - لغزا آخر شبيهاً بالاول من كل الوجوه فهو من فصيلته ولا ريب ، وقد سمته هايسيل ، وحسناً فعلت فإن اللغزين شبيهان فما أحقهما بأن يكون اسمهما متقاربين . وقد

سرنى أنها وجدت للغزها الاول مؤنساً ، فما أشك فى أنه كان يآلم هذه الوحدة ويحن إلى قومه .

اقتربت على حواء أن تدعى إلى اللغز الجديد أجرى فيه تجاربى لعل اهتدى إلى نوعه وأن تجتزى هى بالاول فأبت أن تصغى إلى ، ولم تطلق كلامى واحتملتها وخرجت ، وتوعدتني بالنزوح عن هذه البقعة من الأرض إذا لم أكف عن التفكير فى ذلك . ولست أفهم ذلك من حواء وما أراها إلا جنت تماماً . لأنه إذا كان قد ثبت أن هناك أغازا كثيرة ، وكانت هى قد وجدت منها اثنين - وجدتهما وحدها وبلا معين - فإذا يضيرها أن تلقى إلى بأحدهما وهى لا محالة واجدة غيره فى يوم من الأيام قياساً على ما حدث ؟ الحق أن منطق المرأة غريب . ولم أكن أريد إلا أن أخلصه فى أوقات الفراغ فقد خطر لى من حسن تقليده لحواء ولى أيضاً أنه ربما كان نوعاً طريفاً من القروء . ولكن حواء فقدت عقلها فهى لا تعبأ بشيء من هذه الدنيا سواهما ولا تأتمنى عليهما لحظة .

بعد ثمانية شهور - قالت لى حواء اليوم وعينها تلمع أنها « ستضع ، واحداً آخر ، ولم أفهم منها قولها أنها « تضع ، هذه الأغاز ، وهذه الأكاذيب بعض ما يستخطى ويشيرنى عليها ، ولكنى أحسب المرأة لا تكون امرأة إذا لم تكذب فسألتها عن أدراكها أنها ستجد لغزاً جديداً فقالت بالتجربة ، قلت : أية تجربة ؟ فضيئت لى إلى ركن مظلم فى الكوخ واسرت إلى بصوت خفيض جداً - كما ما كان هناك أحد يسمعنا - أن اللغز معى الآن . فهضمت مذعوراً وقلت معك كيف ؟ ودرت حولها انفضها بعينى فلم أجد معها شيئاً . فقالت : إنه فى جوفى . فارتعت وقلت . اتراك يا .. قدأكلت

أحدهما ؟ وتراجعت عنها فضحكت .. أن حواء تخيفنى . فلن أنام فى الكوخ ،
معهما بعد اليوم .

بعد بضع سنين - لقد حملنا الغز وعرفنا أن هذه الخلائق الجديدة
بنونا . وهم الآن أربعة قايل وهايل وبنتان . ولنا العذر إذا كان الأمر
قد خفى علينا فى مبدئه ، فما سبق لنا بمثل ذلك عهد . وهايل صبي وديع
رضى الخلق وهو أحب إلينا من أخيه قايل الذى أوتر أن يبقى كما كان
يوم جاءنا دبا أو قرداً أو غير ذلك مما توهمته فى صدر خدائته . وقد
ادركت الآن أن حواء أصدق منى فراسة وأذكى غريزة وقد زاد حبي
لها وعطفي عليها . هى التى تنسينى الجنة وماذا كانت الجنة قبل أن أعرفها

عاطفة الأبوة

- ١ -

قلت مرة لزميل من المدرسين الانجليز ، رزق غلاما :
- أتحب غلامك هذا ؟

فأدهشه سؤالى ولم يخف تعجبه له ، وتوهم بادئ الامر أنى أتكلف التشبكك ، فلما بدا لى منه هذا الريب فى صدق سريرتى سألته :
- أظن أن فقد الأبناء فى طفولتهم يكون كفقدهم بعد أن يرشدوا ، ويدخلوا فى مداخل الرجال من حيث وقع ذلك فى النفس ؟
قال : كلا . وإن كنت والله الحمد لم أجرب هذا أو ذاك .
قلت : وكيف تعال ذلك ؟

فأطرق لحظة ثم قال : لى أرد الفرق بين الوقعين لى مبلغ الجهد والعناء فى تنشئة الطفل ورعايته حتى يكبر ، فعلى قدر ما نبذل فى تربيته يكون حرصنا عليه وضمننا به وشعورنا بالخسارة حين نفقده .

قلت : انكم معشر الانجليز هكذا دائما ، حتى العواطف تقدرونها بالأرقام ، على أن تعليلك مع ذلك صحيح لى مدى كبير ، وإن كنت لا أشك أنه كان يسعك أن تهتدى لى عبارة أخرى غير هذه . والآن سؤال آخر - هبك رزقت غلاما ورحلت عن بيتك زمنا ثم عدت وقد

شب الطفل وترعرع وأصبح فتى يافعا ، أياكون شعورك نحوه كشعورك
لو أنك كنت إلى جانبه ، تراه في كل ساعة وتراقب نموه وتفتح عقله ؟
قال : كلا .

قلت : أنظن أن من الضروري لنمو الشعور بالأبوة أن يكون لجهدك
الذي تبدله مظهر مادي ، كأن تتولى أنت مثلا الانفاق عليه والسهر على
تعليمه ومراقبة تدريبه بنفسك إلى آخر ذلك مما يجرى هذا المجرى ؟
قال : وكيف يكون الجهد غير ذلك ؟

قلت : ألا يكفي مثلا أن يكون جهد « عاطفة » يحركها ويشيرها
قربه منك ؟
قال وما أشك في أن هذا يكفي .

قلت : نستطيع الآن أن نستخلص أن حياة الطفل هي التي تتبع
للشعور الأبوي فرصة النمو ، وبعبارة أخرى أن للعادة دخلا لا يستهان
به في قوة هذا الشعور . وليس معنى هذا أن العادة تخلق هذا الشعور خلقاً
ولكن معناه ، أنه يكون كامناً في النفس فتظهره ، وضعيفاً فتقويه ، وفاتراً
فتكسبه الحرارة . والأبوة ماذا هي ؟ أليست مظهراً من مظاهر حب
الذات والرغبة في تخليدها بتكريرها وإعادتها في شخص آخر هو بعضها ؟
قال : أحسبها كذلك .

قلت : ولكن التخليد معنى ، أو إن شئت فقل إنه وهم وخيال
تتعلق به النفس وتتغذى عن الفناء الذي تعلم أنه لا محالة مدركها ،
ولما كان كذلك فرب نفس تكون أطلب له - بطبيعة استعدادها - من نواح
أخرى غير الأبوة ، وعلى طريقة غير طريقة التكرير والاعادة - إذا صح أن
الأبناء صور معادة من الآباء ، وهو غير صحيح ، فما أظن بك ألا أنك

ترى معنى أن هذه الاعادة تكون إسرافا لا معنى له، وسفها لا تسوغه
حكمة ، وأخلاق بالجيل الواحد من الناس أن يغنى عن كل الأجيال التي
تتلوه إذا كانت ستجىء مطابقة له غير مختلفة عنه ، وما أحق الطبيعة
في هذه الحالة بأن يحجر عليها .

قال : هذا كله صحيح بل بديهي . . .

قلت : أشكرك !

قال : عفوا . إنما أردت أن أسأل عن النتيجة ؟

قلت : أريد أن أقول إن عاطفة الأبوة قد تكون في بعض النفوس
أضعف منها في البعض الآخر .

قال وهو يتبسم : ما أراك جئت بجديد .

قلت : بل أريد أن أقول إن بعض الناس لا يصلحون أن يكونوا
آباء أو بعبارة أخرى أنهم بطبيعة تكوينهم لا يستطيعون أن يخدموا
(النوع) من هذا الطريق ، وهؤلاء هم الذين نسميهم النوابغ ونعني بهم
طلاب المجد الأدبي أو الحربي أو العلمي ، فكأن مساعيهم تستنفد حيوياتهم
وتردهم غير صالحين لغيرها ، ومن هنا ما يلاحظ من عقمهم أو قلة
نسلهم أو سرعة انقراضه على خلاف السواد الأعظم من الناس وهذا
السواد هو الذي يعمر الدنيا ويحفظ النوع الإنساني فيها .

• • •

والناس أكثرهم لا يفكرون ، سألت مرة واحدا من إخواني . . .

لماذا تحب أبناءك ؟ فكان جوابه أنهم بعضه وفلذة من كبده .
ألم يقل الشاعر :

وإنما أبناؤنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض ؟
إلى آخر هذا الهراء الذى يعذب فى السماع وتأنس إليه النفس وإن
كان لا حول ورائه ، وقد أردت أن أنبه صاحبي هذا إلى ما بتعليقه من
الماخذ فقلت .

- وهل أنت آسف على أبنائك الذين أخطأهم التوفيق ولم يتمكنوا من
الانحدار إلى هذه الدنيا ؟

قال فى وجوم - ماذا تعنى ؟ من هم ؟

قلت : إن الجواب الذى تطلبه يستوجب منى أن أصارحك بحقيقة
علية لا أحسبك تجهلها ، فأنا أذكرك بأن الرجل منا ينفث فى المرة
الواحدة مئات من الملايين من الجراثيم ، وكل جرثومة منها كافية لأن تخرج
إلى الدنيا طفلاً لو ساعفتها الأحوال وآزرها الحظ ، ولكنه قلما يكون
هناك أكثر من جرثومة واحدة هى السعيدة الموفقة ، وما خلاها يذهب
كما يراق الماء فى الصحراء . فالإنسان - إذا اعتبر هذه الحقيقة العلية - يفقد
فى كل مرة ملايين من الأبناء بقدر ما يضيع سدى من ملايين الجراثيم ،
ولولا هذا الاقتصاد فى التلقيح لاستطاع فرد واحد أن يعمر لا الكرة
الأرضية وحدها ، بل مئات من الكرات الأرضية بنسله .

* وهذه الجراثيم الضائعة ، أو إذا اعتبرت ما كان يمكن أن يكون ،
هؤلاء الأبناء الذين لم يحيثوا ، بعضك أيضاً ، وهم أفلاكك أو أكبادك

كما تقول أو يقول الشاعر ، فلماذا لانراك أو نرى أحداً يأسى على فقدهم
وهم بعضك ، كما تفرح لسلام ترزقه ، وتحبه لأنه بعضك ؟

الحقيقة أن المسألة ليست أن الأب لا يجب أن ينام إلا لأنهم بعضه ،
فإن غريزة حفظ النوع قد تكفلت بنشوء العاطفة وبدفع الناس إلى
طلب النسل ، وهى عاطفة يسهل على الرجل - كما لا يسهل على المرأة -
أن يحولها إلى مجرى آخر تخرج منه شيئاً مختلفاً جداً ، وعاطفة جديدة وإن
كانت مولدة من عاطفة الأبوة . وهما لم تتحول فإن من الميسور أن
تنمو وأن تستوفى حظها على التنبى ، كما هو معروف ومألوف .

على أن الرجل والمرأة ليسا سيين فى هذه العاطفة ، وأكثر الفرق
بينهما راجع إلى أن غريزة حفظ الذات أقوى فى الرجل من غريزة
حفظ النوع ، أما المرأة فعلى خلاف ذلك والغريزة النوعية فيها أقوى
من الغريزة الفردية ، إذ كانت هى بطبيعة تكوينها ، أداة المحافظة على
النوع ، وليس الرجل سوى عون لها على ذلك ، ومن هنا كانت الأمومة
وحواشيها أقوى وأبرز من العواطف المنبعثة من الأبوة .



بعد هذا الذى أسلفناه لانظن القارئ يستغرب أن نقول أن عاطفة
الاخاء عادة ليس إلا ، والف لا أكثر ولا أقل ، وما احسبها تختلف
فى حقيقتها عن عاطفة الصداقة ، وكل ما فى الأمر أن اشتراك المصالح
والنشأة الواحدة تجعل الربط أمتن والأواصر أوثق . وليس أسهل
من فسادها ولا أيسر من تفكك عراها إذا وقعت النبوة بين الأخوين
لسبب من الأسباب ، فلما لغة إذا قلنا أنها عاطفة لاتتميز إلا فى الظاهر

ولأما من حيث الاعتقاد العام فيها ، عن أية عاطفة تنشأ بين اثنين من أبناء آدم . وليس بالنادر ولا من الفلتات أن تؤدي أعاجيب ما تحدثه الوراثة إلى جعل الأخوين أشد ما يكون اثنان تنافراً ، وقلما يفقد الوالدان حب ابنهما أو الولد حب أبيه ، ولكن ما أكثر ما يقع من التعادى بين الأخوين ويتباغضان ، ذلك أن للأبوة أو الأمومة أصلاً تحور إليه ويبقى لها إذا فقدت كل معزز أو مقو ، ولكن ما بين الأخوين لا يرجع إلى أكثر من المصادقة .

والناس يدركون هذا ويفطنون إليه بالسليقة وإن كانوا قل أن يفكروا فيه ، فتراهم يطلقون لفظ الاخاء والتآخى على الصداقة ولا يستكثرون أن ينزلوا الصديق منزلة الأخ ، ولا يحسون انهم هبطوا بمرتبة الاخاء من أجل ذلك ، ولكن الأبوة عندهم وعلى ألسنتهم فى كل لغة لها مقامها الذى تفرد به ومنزلتها الملحوظة التى لاتدانيها منزلة . وليس أصدق من فطرة الجماعات ولا أصح أو أدق من تقديرها لهذه الصلات بما تجريه على ألسنتها - عفواً ومن غير تدبر - من العبارات الواسعة الدلالة العميقة المغزى .

- ٢ -

قَالَ لى صاحب قديم خلطته بنفسى زمناً :

« أضحى هذا ؟ »

قلت « ماذا ؟ »

قال « هذا الذى كتبته عن عاطفة الأبوة »

قلت : وما سؤالك أنت أنكر هو أم أسلوب جديد في الإعراب
عن الموافقة ؟

قال : أما ما ذكرت عن عاطفة الإخاء وإنما لا تختلف عن الصداقة
في أصولها ، وإن الناس يفتنون إلى ذلك بالسليقة فينتعون الصديق
بالأخ ، فصحيح ، وكذلك ماأشرت إليه من أعاجيب الوراثة قد تقضى
إلى التنافر بين الأخوين .

قلت : إن التعادى قد يقع بين الأخوة حتى من غير أن يكون
للوراثة دخل ، وما أكثر الأسباب التي تؤدي إلى انفراج الحال ووقوع
النوبة ، كأن يكونوا من أم واحدة أو أب واحد - أى غير أشقاء -
أو يكون أحدهم أكثر توفيقاً في الحياة ، أو أثر عند أبويه وأحب إليهما .
وأحببك تذكر قصة يوسف - عليه السلام - وحسد أخوته له لأنه
أحب إلى أبيهم منهم :

« لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين إذا قالوا ليوسف وأخوه
أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف
أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً
صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب يلتقطه
بعض السيارة إن كنتم فاعلين ،

وهذه الآية الكريمة تريك كيف يتحدث الأخوة بقتل أخيه
ويأتمرون به ويتفقون على إلقائه في الجب وتركه لمن عسى أن يلتقطه
من المارة ، ويذهب به إلى حيث يشاء من الأرض ، ويبيعه أو يتخذه

عبداً له أو يصنع به ما يحب ، كما لا يجرى في عروقه نفس الدم الذى
يجرى في عروقهم ، وكأنما لا تربطهم به صلة ولا تعطفهم عليه آصرة ، وكل
هذا لماذا؟ لأن أباهم فيما يرون أحنى عليه منه عليهم وأكثر شغفاً به ورقة له!

وأدل من ذلك وأولى بالملاحظة أن أباهم نفسه يدرك بفطرته
السليمة وإلهام حبه ليوسف ، إن كون يوسف أخاً لهؤلاء ليس يمانعهم
أن يسيثوا إليه ويكيدوا له غيرة وحساداً ، تأمل هذه الآية :

ه إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس
والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك
فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين »

والتاريخ حافل بقصص الأمراء الذين لم يتحرجوا أن يقتلوا اخواتهم
ليتبوأوا عروشهم أو ليحطوا محلهم في ولاية العهد أو ليتقوا تأمرهم عليهم ،
لا بل ليستولوا على زوجاتهم ، وقل أن يقتل الولد أباه ، وأقل من ذلك
وأندر أن يقتال الوالد ولده ، وعلى أى شيء تدور قصة هملت الخالدة ؟
أليس محورها كله أن عمه اغتال أباه وأفرغ السم في أذنه وهو نائم في الحديقة ،
ليخلفه على الدولة ، ثم لم يرعه شيء أن يتزوج من كانت امرأة أخيه؟ والناس
لا يستقطعون أن يتخذ المرء زوجة أخيه زوجة له بعد أن يسرحها أو يموت
عنها ، ولكن ما أشد استفظاعهم لأن يبنى المرء بمن كانت زوجة لابنه! وأفظع
من ذلك أن يتزوج امرأة أبيه ، لأنها في منزلة الأم ، حتى لقد حرمت
الشرائع ذلك ، على حين كان المصريون يتزوجون الأخوات

ولست أذكر هذا إلا على أنه مظهر للشعور الفطرى العام الذى

تقوم على قاعدته الشرائع والقوانين ، وتدور عليه الآداب الصادقة
لا التقليدية المتكلفة .

قال صاحبي - هذا صحيح ، ولكن ألا ترجع عاطفة الأبوة إلى أكثر
من العادة والآلف ؟

قلت - من قال إنها عادة ليس إلا ؟

إن الشعور الأبوي مرجعه إلى غريزة حفظ النوع كالحب ، وأساسه
في الرجل والمرأة واحد ، غير أن الرجل أقوى تمثيلاً في حياته الفردية
منه للنوعية ، أعني بذلك أن غريزة حفظ الذات أقوى فيه من غريزة
حفظ النوع ، ذلك أنه هو الذي يتولى مكافحة الطبيعة بما فيها من قوى
وكائنات من جنسه وغير جنسه ، وهو المتكفل بالسعى والذي يتعرض
بسبب هذا كله للأخطار ، فلا غنى له عن الاحتيال لدفعها بالقوة
إذا تهيأ له ذلك ، وبالحيلة والتدبير وحسن التصرف وما إلى ذلك
إذا أعوزته المنة ، والحياة ليست باللقمة السائغة فهو محتاج إلى مغالبة
الصعاب ومعالجة تذليلها ، وهو في كل خطوة يخطوها يصادف ما ينبه
غريزة حفظ الذات أو صيانة النفس ، « ومن أجل هذا - كما قلت في -
حصاد الهشيم - » صارت هذه الغريزة أقوى وأنضج وأسرع تنبهاً وأكثر
عملاً ، لأن حياته تجعل أعماله متصلة بها أكثر من اتصالها بغريزة حفظ
النوع . وهو لذلك أحس بها وأسرع تأثراً من ناحيتها ، ومن هنا كانت
الأنانية في الرجل أظهر وأقوى . والعامّة يلاحظون ذلك ويفطنون
إليه ويذهبون فيما وضعوه من أمثالهم إلى أن الأم أحسن على طفلها من
أبيه . وقد ترى الرجل يداعب طفله برهة أو ساعة ، ولكنك قل أن تجد

رجلا يقوى على ما تقوى عليه المرأة من ملازمة الطفل ، والمشاركة على مداعبته والصبر على التحدث إليه ، ومن توهم فهم ما لعله يرتسم على صفحة وجهه من الحركات أو يند عنه من الأصوات ، واحتمال ذلك وما هو أشق منه ساعة بعد أخرى ، ويوماً بعد يوم ، وشهراً تلو شهر ، وحولاً عقب حول .

أما المرأة فخلقت للنوع قبل أن تخلق لنفسها ، وهى فى سبيل النوع تحمل وتضع وتعرض للبوت الوحى ساعة يجيئها المخاض . وتكوين جسمها شاهد بأنها بمجوعة أداة للنسل ووسيلة لحفظ النوع ، فى جوفها مكان معد للجنين تحمله فيه تسعة أشهر كوامل ، ولها ثديان يدران اللبن ، وجسمها مركب بحيث يتحول الغذاء إلى لبن ترضعه طفلها وتغذيه به حولاً كاملاً على الأقل .

فالعاطفة موجودة ، ومردّها عند الرجل والمرأة إلى هذه الغريزة النوعية ، ولكن اختلاف الرجل والمرأة من حيث التكوين وما أعدتهما الطبيعة له ، ومن حيث طبيعة الحياة يجعل هذه العاطفة أقوى فى المرأة وأنضج منها فى الرجل ، ثم تجيئ الصور الذهنية التى تحصل لكل منهما فتزيد هذه العاطفة وتضرمها . وهذه الصور عند المرأة حشد حاشد وبحر زاخر لا آخر له ولا نهاية ، فهى لا يسعها إلا أن تذكر ما عانت فى شهور الحمل وما جربت فى أطواره وأحست من حركات الجنين فى جوفها ، ثم ما كابدت من عذاب الوضع ، وكل ألف ألف صورة تحصل فى ذهنها بعد ذلك ، مذ كان طفلها وليداً إلى أن يشب عن الطوق ويدخل مداخل الرجال أو النساء ، وكل حركة ومضة من ثديها وابتسامه ونظرة

وتعليقة وعولة وصوت ونهضة وعثرة بخطوة - كل ذلك منقوش على
صفحة قلبها مرتسم على لوح صدرها مذخور في رأسها ، وجوها حافل
بهذا الطفل ، وحياتها كلها دائرة عليه غير منفصلة عنه ، وماضيها كان
تميدا له ، وحاضرها مستغرق فيه ، ومستقبلها آمال منوطة به ، وأخلق بهذا
أن يعيننا على تصور روعة الأمومة وعمقها وسعتها وانطواء كل احساس
فيها ، وتسرب كل شعور اليها ومنها . ولما كان نصيب الرجل من هذه
الصور التي تحصل في نفس المرأة أقل واضأل ، فلا عجب أن يكون غذاء
العاطفة الأبوية أتمه جداً مما يغذى عاطفة الأمومة . وهل الحياة إلا الصور
التي تحصل في الذهن ؟

يقول ابن الرومي في رثاء ابنه :

توخى حمام الموت اوسط صبيتي
فلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لمحاته
وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره
بعيداً على قرب ، قريباً على بعد
لقد انجزت فيه المنايا وعيدها
وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه
فلم ينس عهد المهد أو ضم في اللحد

ألم عليه النصف حتى أحاله
إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه
ويذوى كما يذوى القضيبي من الرند
إلى أن يقول :

وإني ، وإن متعت بابني بعده ،
لذاكره ما حنت النيب في نجد
وأولادنا مثل الجوارح أيها
فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله
مكان أخيه من جذوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه
أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي
أريحانة العينين والأنف والحشى
الآليت شعري هل تغيرت من عهدى ؟
أننى ما استمتعت منك بضمة
ولاشمة في ملعب لك أو مهد
محمد ما شيء توهم سلوة
لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد

أرى أخويك الباقيين كلها
يكونان للاحزان أورى من الزنا.
إذا لعبا فى ملعب لك لذنا
فؤادى بمثل النار من غير ما قصد
فما فيها لى سلوة بل حرازة

يهيجانها دونى واشقى بها وحدى
ولم نورد القصيدة كلها وإن كانت آياتها جميعاً من هذا الطبق الرفيع،
وانما اقتصرنا على ما فيه تمثيل لما نريد، والذي نريد هو أن «نمو» عاطفة
الابوة أو الامومة رهن بالصور الحاصلة فى الذهن ويجهد النفس والأمل
الناشئ. وفى هذه الآيات المتخيرة صور عدة - صور قبيلات يذكر الآب
حلاوتها، وشمات لا تزال تنضوع إلى أنفه، وشمات لا يفتأ يحسها،
وملاعب للطفل وعين أبيه ترعاه وتلاحظه، وذكر شتى يهيجها للغلامان
الليذان أخطأهم الموت، بل كل شئ يهيج الشاعر إلى التذكر، وللهند صورة
وللحد أخرى، ولما كان للأمال فيه صور شتى ولما صار اليه فى التراب صور
غيرها، يتخيلها الشاعر ويتسامل عنها مشفقاً موجعاً فيقول (ألا ليت
شعرى هل تغيرت عن عهدى)، ولصحته صور محبة ولسقامه وذبوله
وما أحابه من الزف وذواه على الأيدى، صور تكوى الفؤاد وتلعج
القلب، وللحاته وبشائرها وأفعاله وما كان يأنس منها ولارجاء فيه والفرح
به وانتظار ما سيكون عليه ويصير اليه، لكل ذلك صورته العالقة بالنفس
المتشبثة بالضمير، وهكذا إلى غير نهاية. وأين تكون نهاية هذا العالم
الحافل بالذكريات المحشودة الزمر؟ وما ظنك بالأم وعالمها أحفل، وزمر
ذكرياتها أحشد!

والذين تتحول هذه العاطفة الأبوية في نفوسهم إلى مجرى آخر ، أغنى
الذين يتبنون الآداب أو الفنون أو العلوم أو ما شاكل ذلك ، يستغرقهم
حب ما انصرفوا اليه وتخلوا له ، ويدرى الناس مبلغ استغراق ذلك لنفوسهم
واستيلائه على هواهم فيعجبون ويعدون شذوذاً ويحصونه عليهم ، ولو
أنهم فكروا في أنهم اعتاضوا من الأبناء هذا الذى شغفوا به ، وأنها هى
عاطفة الأبوة فى صورة أخرى ومظهر جديد ، لما بدا لهم فى أمرهم وجه
غريبة أو شذوذ ، ومن الذى يستغرب من الأب حب بنيه ووقف حياته
عليهم وإفراغ جهده فى سبيلهم وقصر سعيه على خدماتهم ؟ لأحد ! بل
هذا هو المعقول ، فمهم يدهشون ويعجبون حين تلبس هذه العاطفة ثوباً
آخر أو تتدفق فى مجرى جديد أو تتخذ صورة غير المألوفة ؟

كيف كنت عفر يتامن الجن

كان ذلك وأنا فتى يافع أسوم كل سرح، وأنهر بكل دلو، ولا أفكر في غير الساعة التي أكون فيها، ولا أبغى إلا أن أستوفى حظى في الحياة، وإن أستوثق من أن كرعتى منها راوية . وفي ليلة من ليالى الصيف الحميدة، ثنيت الخطأ إلى البيت — وكان فى حتى « الصليبه » — بعد أن قضيت وطرى من شراب وسماع، فلما بلغته ووقفت على عتبتها، ذكرت ان ليس به أحد سوى جدتى التى أوفت على التسعين، وأن المفتاح ليس معى، فقلت لنفسى « أيليق أن أزعج الجدة وهى تقوم بجهد ولا تسير إلا إلى جانب الحيطان لتضع يدها عايتها وتسند نفسها ؟ كلا، أولى بي أن أدعها مستريحة وأن الحق ببقية الأسرة — أمى وأخى — والجورائق والمشى منعش . »

هو أوليت الباب ظهري وانصرفت . ولم يكن الطريق إلى الأمام، فى فى تلك الأيام، معبداً، ولا ترام هنا ولا نور، فليس طريق بأحسن أو آثر من طريق، فاخترت أقصر مسلك وهو الذى يمر بمسجد « السيدة نفيسة »، ويخترق المقابر المبعثرة ورامه، ويتصل بالطريق العام المطروق عند آخره. ومضيت أخط فيه، واتخط أيضاً لأن كثرة المقابر وانتشارها وتراحها تفضل ولاسيا فى الظلام، غير أنى لم أكرث لذلك ولا فكرت فيه،

وفوضت الأمر لرجلي تدبان حيث الفتان أن تدبا في أوقات شتى من النهار والليل ، وانطلقت أفكر فيما كنت فيه ، وأردد فيما راقني سماعه وأرجع ما شجاني من الانغام ، واعينني « مقطوعة » ، وأحسست أن المشي لا يعينني على ضبط الصوت فيها وإخراجها كما ينبغي ، فوقفت وأسندت ظهري إلى قبر وذهبت أغنى ، وهي صورة لا تزال ماثلة بذهني إلى هذه الساعة وإن كنت في ليلتي تلك لم التفت إليها ، ولا جعلت بالي لها ، وكيف يعبا شاب ثمل بالقبور وما انطبقت عليه ؟؟ وعلى أنه متى كان المرء في صدر العمر يفكر في الموت على أنه حقيقة قريبة لا يهرب منها ولا معدى عن مواجهتها ؟؟ إن الإنسان منا ينظر في شبابه إلى الموت — حين يجريه شيء بباله — كما ينظر إلى شيء وراة الجبل — لا يفهمه ولا يدركه ولا يعرف كنهه ولا يتصوره إلا على أنه المجهول البعيد . ويشغله صعود الجبل وما يلقاه على هذا الجانب منه ، وما يفتنه وهو يتوغل حتى يدنو من القمة ، فتتزاخم في رأسه الخواطر والتكهنات عما وراة هذه الربوة التي قضى الشطر الجليل من حياته في الصعود إليها ، ويحضر إلى ذهنه شيئاً فشيئاً معنى الموت ومؤداه ثم يستبد بخاطره ولا يخاطره ويسكون الأصعاد قد هد القوى كثيراً وأنهك الجسم فيتبدل إلى حد كبير من فرط التعب ويواجه فكرة الموت في شيء من الذهول يذهب برهبة الفناء ويسلبه الفزع .

وقفت اذن أغنى على القبر وأرسل الصوت في ظلمة الليل غير حافل بما حولى من القبور المتزاحمة أو عابيه بما تحتي من الرفات الدفين . رفات قوم كانوا مثلي في ميعة العمر وعنقوان الحياة وجهل الشباب يمرحون ويغنون ولا يفكرون فيما يصير إليه كل حى من الفناء الشامل . وما

فنتت إلى هذه الساعة أعجب لذهولى إذ ذاك عن الموت وأنا فى وسط
لجته الراكدة . ان الشباب رحمة ، وكيف كانت الحياة تكون لو ان فكرة
الموت كانت تخامر النفس من المهد إلى اللحد ؟ كان حرياً بها إذن
الاتطاق وكان خليقاً بالمرء أن يكف عن كل سعى ، وأن ينفذ يده من
كل جهد يبذله فى سبيل أية غاية بالغة ما بلغت من السمو والفتنة ، وما
خير الحياة أو جدوى المساعى أو عزاء الغايات وهذه الهاوية مفتوحة
لابتلاع الإنسان ؟ ان الموت هو اليأس ، ومن رحمة الله بالخلق أن
الحياة أقوى ، وأن إحساس المرء بها أعظم ، وأن وقعها فى نفسه أشد ، وأن
استيلاءها عليه أتم ، والشباب قوة دافقة ، والحياة معه تكون جديدة ،
فلها كل حلاوة الجدة وسحرها ، ولكنها فى الكهولة تكون شيئاً مألوفاً
وتجارب معهودة معادة ، ومن هنا لا يحس الإنسان بالفرع حين يخطر
له أنه سيكف عن هذه الحياة التى ظل يذوقها حتى كاد يحتوئها ، ولولا
أن الحياة عادة ككل شئ فى الدنيا ، وأن المرء يألف أن يعيش وأن
يتنفس الهواء لما استثقل أن يموت وأن ينقطع عن الدنيا ، فالمادة
والخيال الذى ينمو مع العمر ، والاحساس بالنفس ، هذا هو الذى
يجعل الموت صعباً ويجعل لفارقة الحياة المأساوية . وعلى خلاف ذلك ،
الأطفال والحيوان .

وبينما أنا واقف أغنى لحت شبهاً مقبلاً ولم أشك فى أنه رجل
فاتجوز المرأة — إلا فى الندرة القليلة — أن تسير بين القبور فى الليل
فكففت عن الغناء وساورتنى الشكوك . وخطر لى أن القادم قد يكون
لصاً ، وقد لا يكون ذلك ، ولكن وحشة المكان وسكون الليل قد يفرانه

بالتلصص . غير أني طمأنت نفسي ، وقلت - وماذا أخشى وليس معي شيء يستحق السرقة ؟ إن هي إلا بضعة قروش لا تغنيه إذا فاز بها ، ولا تفقرني إذا خسرتها ، وأنا بعد خفيف الوزن سريع العدو وعارف بالمداخل والمخارج ، وما أحسبه يستطيع أن يدركني إذا أطلقت ساقى للريح ، فلا خوف من القادم ، وليكن من يشاء ، وليس من الحكمة أن أدع الخوف يشيع في نفسي فتظهر دلائله في صوتي وحركاتي ، فيطمعه ذلك في ، إن كان رجل سوء ، على أن الحزامة مع ذلك أن أتوارى خلف قبر منزو ، لأراه دون أن يراني ، ولا عرف ما ذا هو ، ولايسير أمامي وأكون أنا وراءه فذلك أدعى إلى الاطمئنان .

ودنا القادم فإذا هو شيخ كهل ، أبيض اللحية وفي يده سبحة ، وهو يذكر الله أو يتلو من القرآن أو لا أدري ماذا كان يتمم ، وبأى كلام كان يحرك شفتيه ، فغاضني أن هذا الشيخ الضعيف قد أفرغني ، وكأنما تحركت نفسي للانتقام منه ، فغافلته في بعض الطريق وظهرت له فجأة من وراء قبر فريح المسكين وكاد يتهاافت إلى الأرض ، وأسرعت فتواريت وعدت أدراجي مسافة قبر أو قبرين - أى بضعة أمتار - وكان الرجل يتلفت حوله فلا يبصر شيئاً ولا يسمع حساً فشد بعضه إلى بعض وتفل يمينه ويسرة ورفع صوته بالاستعاذة من كل شيطان رجيم ، واستأنف التلاوة والسير ، وأنا أتسلل بين القبور وراءه ، وصارت خطاه أسرع ، فأدركت أن الخوف لا يزال في قلبه ، ووثبت إلى جانبه مرة أخرى ، ومددت يدي بخفة فجذبت شعر لحيته فصرخ واختفيت ، ودرت من وراء القبور فسبقته وأنا أكاد أجن من السرور والجدل ، وصدرى يكاد ينفجر

بالضحك المكتوم، وصبرت حتى مر بي فدفعت يدي إلى خصره ودغدغته فأقسم لقد وثب الرجل عن الأرض كأنما كنت قد غرزت في جنبه سيفاً أو حديداً محمياً ورأيت فرصتي سانحة — فقد بلغ الاضطراب بالرجل غايته ، وصار يخط في كلامه كالذي لا يعي ما يقول ، فكان يصيح « أعوذ بالله من ... » من فرط ما أصابه من الفرع . وجئته من ورائه ورفعت صوتي بالزمزمة وبكل ما أستطيع لإخراجه من الأصوات المنكرة فانطلق الرجل يعدو ؟!

وهكذا أفلت مني !.. وكنت قد تعبت فلم أحاول أن الحق به، فتشيت متمهلاً ونفضت التراب عن ثيابي وخرجت إلى الطريق العام المطروق وبعد قليل — ربيع ساعة أو نحو ذلك — بلغت مسجد الإمام الشافعي وكان المؤذن يمهّد للأذان بغناء خفيف، والناس يخرجون إلى المسجد ليتبشروا لصلاة الفجر، فرأيت جماعة يحيطون بصاحبي الشيخ وهو يقول لهم: -

« وكان كالقط الأسود، يشب على كنفى ويلحس لي خدي وينفذ من بين رجلي، ويدخل بين الجبة والقفطان، وكنت أستعبد بالله فتشق الأرض ويغيب في جوفها، ولكنه كان يعود فيظهر لي أحياناً في صورة الدبة راكضاً على يديه ورجليه، وأحياناً أخرى في مثل كفن الميت خارجاً من تحت أحجار القبر، وقد تمزق اللثام عن وجهه وبرزت عيناه تقدحان بالشرر فأتلو ما تيسر من القرآن فيلتف الوجه في خوقة وهوى الجسم إلى جدته . ولست أنسى ما حييت أسنانه ! لقد كانت كالجرات لا معة حمراء وكانت تضطرب في فمه وتخفق كالنجوم والحمد لله الذي أنجاني من عناقه ... »

فقال أحدهم : « أراه هم أن يعانقك ؟ »

فقال الشيخ : « هم ؟ هم يعنى ماذا ؟ أقول لك أنه مد ذراعين كأنهما منذنتين ودنا منى ليطوقنى بهما ولمح الشوك الذى فى صدره كأسنان الحراب فلولا أن ألهمنى الله أن أقرأ آية الكرسى لكنت أنا الذى مت . »

قال آخر « وهل مات ؟ غريب ! »

فقال الشيخ : « لقد احترق . حرقته آية الكرسى . ثم استأنفت السير حتى بلغت هذا الطريق عند ... »

ودار بوجهه ليشير إلى المكان الذى نفذ منه إلى الطريق العام فأبصرنى وراءه فاضطرب وصاح وهو يشير إلى يديه : -
« أهه . أهه .. أهو ... »

فلم يفهم أحد سواى معنى صيحته وأشارته ، ورددت الضحك الذى ازدحم فى حلقى والتفت ورائى، كأنما أريد أن أنظر إلى حيث يشير، وكان الرجل يتراجع ويلصق بالناس فسأله بعضهم : -
« أين ؟ إنا لانرى شيئاً ! »

ففسح الشيخ وجهه بكفه وفاء إلى الهدوء وقال : -

« غريب ! غريب ! أن هذا الافندى يشبه جداً »

فلم أر مانعاً من الضحك وقلت : -

« أترى لى وجه عفريت ؟ »

وكان بين الواقفين رجل أعرفه ذكياً خبيثاً ويظهر أن الشك خالجه في
الحسكاية أو أنه فطن إلى بعض الحقيقة فقال لي :-

« إسمع . من أين جئت ؟ »

قلت « وقد أدركت ما يرمى إليه — جئت من هذا الطريق ،

وكان هذا كذباً أو بعض الحقيقة . ولكنني خفت أن يجر الصدق إلى
الفضيحة : فعاد يسأل »

« هل جئت من السيدة نفيسة أو من القلعة ،

قلت : « من القلعة ولا شك . ومن الذي يجرؤ أن يمشى بين القبور ؟ »

فتمتم شيئاً لم أسمعه ومضى عني ونجوت

وهكذا عرفت أنني كنت في ليلتي عفرتنا من الجن !

رجل ساذج

كان لنا - ونحن شبان - رجل ساذج لم يعرف سوانا . كأنما قد هبط
علينا من السماء . وكان الواحد منا يذكر معارفه أو يصف القرية التي هو
منها ، أو يقص علينا مغامراته ، أو يحدثنا بمعاشقه ، ويعرض ما عسى أن
يكون محتفظاً به من مثل خصلة شعر أو منديل أو نحو ذلك ، وهو واجم
كثيب لا يفتح فيه . وكان يخشى ركوب الماء ويخرج من اضطراب الزورق
على متنه ، ولا يزال يتنقل من جانب كلأ مال ، ولقد اضطررنا مرة أن
نشده إلى سارية الزورق لنستريح من قلقه .

وأنشدته مرة قصيدة ابن الرومي التي يصف فيها ما لقي في البر والبحر
من التباريح والمخاوف . فلما بلغت قوله :

ولم لا ولو القيت فيه وصخرة

لو أفيت منه القعر أول راسب ؟

ولم أنعلم قط من ذى سباحة

سوى الغوص ، والمضغوف غير مغالب

وأيسر اشفاقي من الماء أنقى

أمر به في الكوز من المجانب

وأخشى الردى منه على كل شارب

فكيف بأمنيه على من راكب ؟

صفق وتحمس وقال إن هذا « رجل عاقل ، وبعد أيام انتحى بي ناحية وسألتني أتعرف ابن الرومي ؟ فلم أعجب لسؤاله وقلت « نعم » قال : « أرجو منك أن تعرفني به ، فوعده أن أفعل . وشاورت أخواني كيف أصنع ؟ ولما اتفقنا ، قدمته إلى شيخ وقرر كئ اللحية إلا أنه احق سريع الغضب ، وفي وسع القارىء أن يتصور ما وقع . وبحسبي أن أقول إن صاحبنا خرج من مجلسه وقد أصابته عكازة الشيخ على رأسه وركبته ، وكانت أصابة الركبة أوجع فظل يظلع أياما . وسألته بعدها عن ابن الرومي كيف وجدته ؟ فكاد الدمع يطفر من عينه وقال في سداجة محبة إلا أنها مغرية « الحق على . أن التهجم على كبار الناس سوء أدب ... »

ولست أنسى ما حييت حادثة أردنا أن نركبه بالدعابة فيها فأفضت إلى مأساة أو ما هو في حكمها . ذلك أننا أوهمناه أن فتاة رومية تعمل في « بار » شهير تحبه ، وألحطنا عليه بذلك حتى صدق ، وكنا نجيشه بقليل من الفستق أو الشكولاتة ونزعم ذلك هدية منها إليه ، وكان هو حيا ينجل حتى من مخاطبة الاغراب من الرجال فكيف النساء ؟ فجعل يغشى هذا (البار) في الساعة التي يكون على الفتاة أن تجلس فيها إلى (الكيس) ويجلس بحيث يراها ولكن على بعد ، فندعه أحيانا ، وأحيانا أخرى نلحق به ونثنى على جمالها وتنافس في وصف مفااتها ، فيشرق وجهه وتومض عيناه ، كأنما يحمد منا الثناء على حسن اختياره ! ونزوح نسأله « ألا ترى كيف تغمز بعينها ؟ أليس من الواجب أن تبادلها غمزة عين بغمزة عين ؟ فيفعل المسكين ونجاهد نحن أن نخترع سبيلما تنفجر به من الضحك . ومازلنا نحثه على إستعمال اشارات الحب حتى صار يدخل البار ومعه

طاقة شتى من الورد ما بين حمراء ، رمز الحب المتقدم ، وبيضاء عنوان
الطهر والعفاف ، وصفراء للدلالة على ما اصابه إليه السهر والبكاء واللهفة
من ذبول لونه ، فيجلس ويشرح يخاطبها بهذه اللغة الدقيقة ، حتى إذا فرغ
من هذا المعجم استعمل المناويل يضعها على فمه ، أو يكفكف بها الدمع
الموهوم أو يفركها بين أصابعه . ولم يعد يبالينا أو يحفل غيرنا من الناس
فقد اضطربت نفسه ولعبه حب هذه الفتاة .

والحق أقول أننا أسفنا لما تبينا ما صار إليه الأمر ، ولكننا لم نستطع
أن نثنيه عن هذين قلبه ، وكان كما قلت ساذجا جداً حياً إلى درجة
تفسد الحياة وتحيل الانتفاع بها من المستحيلات ، ولكن الحب خلق
شخصاً جديداً واسعت السذاجة الحب واعاته على الاستبداد بنفسه ،
وما راعى يوماً إلا هذا المسكين يعود إلى ويقول « هنثى » .

قلت وقد طاف برأسى أن المستحيل قد وقع . بأى شيء ؟ .

قال « لقد خطبتها ! » .

قلت ولم أستطع أن أخفى دهشتي « خطبتها ؟ أنت ؟ » .

قال « نعم ، الست أحبها » .

فلم أدر أوهنته أم أرثى له ، وخرجت من هذه الحيرة باجتناب
الإنثنين جميعاً وسألته « ومتى الزواج إن شاء الله ؟ » .

فطال وجهه فجأة وحاول أن يبتسم ، ولكنه لم يوفق إلا إلى جعل
وجهه مفزعا وقال : لن أتزوجها . وكأنما أحس أن الأمر يحتاج إلى إيضاح ،
فزاد على ذلك « أعنى إنى أظن خير لى ولها إلا أتزوجها » .

فلم أرني زدت بإيضاحه إلا حيرة فصحت به بلهجة قاسية :
« إنك مغفل » .

فأدهشني أن تنبسط اسارير وجهه وأن يقول « نعم أنا مغفل ولم اكن قط أجهل ذلك . وأنت تعلم إنني أحبها وقد خاطبتها في الزواج . فكانت كريمة جداً مؤدبة جداً . لم ترفض ولكنها لم تقبل أيضاً . والحق أقول يا صاحبي . لم يسعني إلا أن أصارحها بأنني .. بأنني كما تعلم مغفل ، وأنها تكون أسعد لو تزوجت رجلاً .. رجلاً .. غير مغفل .. يجب - مادمت أحبها - أن أقدم خيرها على رغبتى . أليس كذلك؟ إن من حقها على وواجبي نحوها أن أراعى مصالحتها .. قل لي أليس هذا خيراً ؟ »

فلم أقل شيئاً ومضيت عنه لا ساخطاً ولا ناقماً ، ولكن فائض النفس جائش الصدر وماذا عسى أن أقول لهذا المسكين الطيب القاب ؟ ؟ ..
ولم نضحك بعدها منه أبداً .

ابن البلد

البلد القاهرة أو مصر - كما كانت ، وكما لا تزال تسمى هذه العاصمة - أو طائفة من الاحياء هي الواقعة بين العباسية والسيدة زينب ، وابنها شخصية شاع فيها الفناء علوا وسفلا وعفت عليها المدنية فلا يكاد المرء يلتقي بها في هذا العصر ، وما أسرع ما تداعت الاسوار وطفى عباب الحياة اقبل عشرين سنة فقط كنت ترى ابن البلد هذا « مستقيضا ، وتلقاه في حيثما تكون ولا تخطئه عينك وهي تدور بلحظها ، فهو رجل دنياه مصر أو تلك الاحياء القديمة منها ، لا يعرف غيرها ولا يكاد يدرى أن فوق ظهر الأرض سواها ، وهبه يدرى فما أقل ما يعبا بذلك أو يحفله والزمن عنده اللحظة التي يكون فيها ، وهو ذكي إلا أنه جاهل ، وظريف سوى أنه مغرور ، وحى ولكنه لا يحيا إلا بجواسه ، تدور الدنيا حوله على محورها أو على قرن الثور الذي يحملها ويدور رأسه معها ولكنه لا يعرف ولا يرى شيئا ولا يسأل عن شيء ولا يكثرث لشيء ، ويحتقر الريف لأنه يحمله ، ويزدرى المدنية لأنه لم يألفها ، ويعتز بنفسه ويستنخم أمرها لأنه سهر الليالي وأحياها بالغناء والشراب والعريضة وهو مثال الرضا عن النفس والجود الذي يخلفه هذا الرضا وإذا كان يرى كل شيء من قريب فما من شيء يدعو به إلى العجب أو يبتعث الرغبة في الاستطلاع

وكل إحساس له يصل اليه عن طريق الفكاهة ، وأشد ما يبغض أن يضطر إلى الجد والوقار ، وليس في نفسه محل للاعتراف بالجيل ، والامر عنده مجاملة متبادلة أو حق ، له أن يحبيه وعليك أن تؤديه ، هو المثل الاعلى لنفسه - أو لعله جار سابع أو ثامن - فليس لغير نفسه احترام ولا مطمح له إلا أن يظل قادرا على التحفظ بمظهره ، فلا عناية له بالسياسة أو شئون الحكم ، وبحسبه من العلم بالحكومة ومهماتا أن يرى مواكب رجالاتها ومن التطلع إليها أن يتصور نفسه راكباً مركبة المحافظ أو أن يكون ممن يحظون بالدخول على «رياض باشا» ، يفتح عينه على الدنيا كل يوم قبيل الظهر ، فتنحى الستائر عن النوافذ ويؤذن لنور النهار أن يدخل ، وبعد أن يقضى ما يشاء من الساعات التي تأتي إلا أن تكرر ، في التمتطي والتثاؤب وتناول الطعام والقهوة المرة مذاباً فيها العنبر ، يقوم إلى ثيابه فينتقى منها جبة وقفطاناً منسجمين متجاوبين ثم يلف العمامة - ولفها مهمة شاقة قد يستغرق بقية النهار إلى العصر - ثم ينزل إلى المنظرة ويتلبث بها ريثما يشرب القهوة ويشد أعصابه ثم يخرج إلى دكان بدال أو حلاق أو عطار أو غير هؤلاء ، ويتوafى الرفاق وتروى أنباء السهرات . ويسأل السائلون عن «عبده» أو «عثمان» أين يغنى الليلة . ويتفق الاخوان على مكان يجتمعون فيه وشراب يجلسون إليه . ثم يتحاملون بعد أن يقضوا وطراً من النهار إلى المغنى ولعلمهم غير مدعويين فيظلون إلى طلوع الشمس في آهات صاخبة وضوضاء ترج ما بقي من الرأس وترلزل السكبان .

ومجالس أبناء البلد نكات خشنة وضحك مفرقع . وأعذب ما يكون

طعم الحياة في أفواههم حين يركبون صاحباً لهم بدعابة عملية . أعراف
واحداً من أظرف أبناء البلد وأكرمهم وأرقهم حاشية لا يرضى عن
نفسه إلا إذا استطاع أن يوقع واحداً ممن يسهل التاجن عليهم في مأزق
أو يزوج به في ورطة . وكان يستثقل ظل واحد من حراس المقابر .
وكان هذا لا يفتأ يغشى مجلسه وينغص عليه لذاته البريئة بتذكيره بالموت
وإحضاره إلى ذهنه . فأراد أن ينفيه عن هذا المجلس فأوعز إلى خادم
فاستأجر هذا مكاريأ وبعثه برسالة إلى صاحبنا الحارس مكتوبة على لسان
تاجر معروف والدته مريضة يدعوه فيها إلى الحضور إليه بأسرع
ما يستطيع للاتفاق على بناء مقبرة لجاء المكاري إلى الحارس بالرسالة
ففضها فتهلل وجهه وراح يحسب الريح المنتظر من وراء هذه « المقالة » ،
فلم يصرف المكاري بل ركب الحمار ومضى إلى التاجر ودخل عليه
وحياه ودار بينهما حديث :

الحارس - إن شاء الله تكون الوالدة بخير

التاجر - بخير بارك الله فيك

الحارس - هل هي مريضة جداً ؟

التاجر - نعم ولكن الله المستول أن يخفف عنها ويلطف بها

الحارس - إن شاء الله . لقد بعثت لى حضرتك برسالة وقد جئت

حسب أمرك

التاجر - (مستغرباً) رسالة لماذا ؟

الحارس - نعم ألسنت حضرتك فلاناً ؟

التاجر - هو بعينه

الحارس - إذن الرسالة منك

التاجر - ولكن .. هل تسمح لي بمعرفة اسمك ؟

الحارس - آه ! يظهر إن حضرتك لم تعرفني ، ولهذا تستغرب أن تكون قد بعثت إلى برسالة . أنا فلان

التاجر - أرجو .. أن تزيدني بياناً فليست أذكرك ولا مؤاخذه

الحارس - هذا غريب !

ورأى أن يحل الإشكال ويحسم الخلاف بتقديم الرسالة التي تلقاها .
وتصور موقف الرجلين حين فض الرجل الخطاب واطلع على هذه
(البشرى) في الصباح الباكر

ومن نوادر صاحبنا أنه وصف مرة لبخيل طريقة لصنع (الكنافة)
وأقنعه بتجربتها . وجاءنا البخيل بعد أيام - وكان ذلك في رمضان -
يشكو ويسخط ويلعن ويقول : « اشتريت أربعة أرطال من الكنافة ،
وناولتها امرأتى وقلت أعديها ، وجئت بثلاثة أرطال من اللبن الحليب
كما أوصاني اللعين خيبة الله عليه ! - وغلينا اللبن قبل المغرب بدقيقتين ،
وكانت (الكنافة) قد نضجت . فلما سمعنا مدفع المغرب صيينا اللبن عليها
وأغرقناها فيه ، وأقبلنا على الطعام نتناول منه بقدر لنترك مكاناً
(الكنافة) وإذا بها عجijn لا يؤكل ولا يصلح لشيء إلا أن يرمى للكلاب !! -
وهكذا ضاع على ما أنفقته في الكنافة من السمن والسكر واللبن والزيب
والصنوبر والبندق والجوز واللوز وثمرن الوقود ، وضاع على سائر ألوان

الطعام التي لم أكد أمسها ترقباً للكثافة . فماذا أدعو عليه ؟ ،
وابن البلد لا يعرف الريف ولا يصبر عليه ، وإذا خرج إليه استغرب
أن الطريق ليس غاصاً بالمساكن المتلاصقة ، وإن الأشجار قائمة هنا
وهناك ، وأن الدنيا أرحب مما كان يظن ، وأحس بالميل إلى الضحك ،
ولكن ثقته بنفسه تفارقه مع المدينة التي غادرها ، ويرى نفسه بين الفلاحين
غريباً ويسمعهم يتكلمون فيما لا يفهم ، ولا يسعه إلا أن ينهر معهم بدلوه ،
ويخطيء عندهم سهراته ومجالسه ، ويحتاج أن يغير عاداته وأن ينزل عنها
وأن يحتمل الاضطراب الناشئ عن ذلك ، ولا يحس في الريف ذلك
التعاطف القريب ، ولا يفهم أن ينام على ظهر الفرن ومع النساء والأولاد
والطيور والبهايم لأن له (مزاجاً) والناس في الريف أكثر ما يكونون ،
بعداء بعضهم عن بعض ، وهم يقضون أوقاتهم مبغثرين في الحقول فليس
في مجالسهم ذلك الصقل ولا تلك النعومة التي تكون لمجالس أهل المدن ،
فهى لا تخلو من جفوة طبيعية وتكلف محسوس وحنج مرجعه إلى اعتياد
أهل الريف أن يتخاطبوا بأصوات عالية لبعده المسافات بينهم ، وقلبا
يشعر الحضري بحرارة الترحيب إلا حيث يكون قدوم الغريب «حادثاً»
ينذر أن تتكرر ، فيتدفق الكرم المحبوس إذا لم يكن له مجال ! ولظهوره
فرصة كبيرة فيقبل الناس عليه ويفرحون به لإقبالهم على التحفة النادرة
أو المنظر الذي لايجود به الزمن مراراً . وهكذا كان الحال قبل أن توثق
المدينة ما بين القرية والمدينة من الروابط ، وتسهل عليهما الاتصال
والتبادل والتفاهم والتقارب .

وابن البلد قد يكون أديباً أو فناناً - إذا كان قد جاور في الأزهر

في صدر شبابه ، وأدبه البيت أو البيتان من الشعر يضمهما نكتة لفظية
أو معنوية ، يداعب بها صديقاً ، وأكثر ما يكون نظمه للأزجال
والمواليات ، وربما نظم التوشيح ودفع به إلى ملحن أو مغن ، وهو
لا يحفظ من الشعر إلا ابن الفارض ومن إليه ، وإذا كان فناناً فهو من
هواة (العود) على الأخص ، تبتدى وتنتهى دنياه بالشراب والسماع
والوجه الحسن ، وفيما عدا ذلك لا وجود للدنيا .

ولا يعرف ابن البلد الحب ولا يحسن أن يعشق ، والجمال عنده يوزنه
أرطالاً أو قساطير ، والمرأة مخلوق يداعب ويفازل ويجمش إلى آخر
ذلك ، وليست إنساناً يبادلك التعاطف ويعاونك في الحياة ويقاسمك
متعها ومتاعها ويؤدى مثلك وظيفته التي خلق لها . وقد ترى ابن البلد
عاشقاً ولكنه عاشق بجواسه ، لا يعرف صبوة النفس إلى النفس وحنة
القلب للقلب .

وهو يجود في غير كرم ، ويمسك في غير بخل ، ويتكلم بغير علم .
ويضحك بغير جدل . ويحتشم في غير أدب . ويسير في الدنيا غير محتفل .
ويقضى الحياة غير عابى بما كان أو مكترث لما يكون . همه أن يأكل وينام
ويسر ويضحك . فالضحك وما يعين عليه من الشراب ومجالس الإخوان
غرض يسعى إليه وغاية تعتمد . والحياة آخرها الموت . فخير التعب
فيها وإرهاق النفس بالعمل والطلب ؟ أليس كل شيء إلى فناء ؟ فأولاد
باغتنام الساعة التي يكون فيها وما أسخف من يعنون أنفسهم ويحرمونها
لذاذات العيش ومتع الوجود ؟ ألم تر إلى فلان الذي قضى عمره يجمع المال

ويطلب المناصب ويريق ماء وجهه على الاعتاب ويقتصر على نفسه ليغنى
ويضيّق على ذويه ليتسع ؟ .. ألم تر إليه كيف قضى نجبته وهو جالس
على باب الحلاق ؟ فإذا أجدى عليه تعب وسعيه وتقديره وحشده ؟ إن
فيه لعبرة لسواه . فهات الكأس وأصلح الأوتار ، وأطلق صوتك
بالغناء ينق عن النفس وحشتها وتجمل صداها وتنسها أن الحياة إلى انقضاء .
فإن البلد فلسفة عملية تجهل نسبها العريق في الأبيقورية المشوهة ،
ولم يعرف عليها الزمن حين عفى عليه .

صورة وصفية لصحفي

قضى (م .) سنة كاملة يعمل في سكون في الصحيفة التي التحق بها ،
ويؤدي الواجب الذي وكله إليه رئيسه باخلاص ودقة وكان واجبا شاقا ولكنه
كان يجد فيه ملهاة عن هموم الحياة . وعرف له رئيس التحرير فضله فكان
لا يفتأ يثنى عليه ويشجعه ويبلغه حسن رأى الناس فيه وحدهم بجهوده ،
وكان يخجله ان يسمع هذا المدح ولا يدرى لماذا يجب فيقطب سوهو يريد
ان يبتسم - ويتلفت يمينا وشمالا كأنما يبحث عن نافذة يثب منها . وطلب
منه رئيس التحرير يوما صورته فريح المسكين وقال « صورتي ؟ »

قال « نعم صورتك . نحن في ديسمبر كما تعلم »

قال وقد زادت حيرته « أعلم هذا ، ولكن ما العلاقة بين كوننا في
ديسمبر وبين صورتي ؟ »

فابتسم رئيسه وقال « قد اعتزمت أن أعطيك جواز ركوب مجاني
للترام . هذا ما أستطيع أن اكافئك به الآن ، وقد كان بودى ان ازيد مرتبك
ولكن لأرى هذا ميسورا في الوقت الحاضر . وفي مرجوى أن أستطيع
بعد قليل »

ولبت أياما يخجل أن يبرز الجواز أو ينبيء عمال الترام انه « ابونيه »
ويؤدي أجر الركوب ، ذلك أنه أحس بشيء من الحرج لان الجواز

بجاق ، وخيل اليه تغير ماسبب معقول - أن (الابونية) منحة من الشركة ، فلا يبعد أن يخطر لها يوما أن تسترده ، وتجسم له وهمه فكان يتصور أن العامل جاءه يطلب ثمن التذكرة ، فقال له (ابونية) فطلب رؤية (الابونية) وفتح ثم طواه ودسه في جيبه وقال (تذكرة من فضلك) ومع اطمئنانه إلى استحالة هذا ، صار يستدرج أخوانه الذين يحملون مثل جوازه ليركبوا معه . أو على الأصح يركب معهم وأن كان طريقهم غير طريقه ليطمئن ويتشجع ، حتى ألف هذه الحالة الجديدة . وعلى أنه مع ذلك ظل زمنا كلما مر به عامل الترام وهو راكب ، يتوخم أن يكون سلوكه وهيشته على خير ما ينبغي . فإذا كان واضعاً رجلا على رجل انزلها وإذا كان يتكلم صمت ، وإذا كان ناظرا إلى اليمين أو الشمال رمى بعينه إلى الأمام كأنه تليذ لمحة المدرس يتشاغل عن الدرس .

وكتب يوما مقالا ودفعه إلى رئيسه فما راعه في اليوم الثاني إلا رؤية المقال في صدر الجريدة وفي ذيله اسمه . فالتقى القلم وأسرع إلى رئيسه يؤكد له أنه لم يذيل المقال باسمه ، وأن المسئول سواه عن هذا الخطأ أو التصرف المعيب .

فقال رئيسه ، ألم يخطر لك أن من الغبن أن جمهور القراء يحمل اسم كاتب مقالاتك ؟

فدهش واستحيا أن يخالف رئيسه لاجبنا ، بل لأنه لا يجب أن يتهم رئيسه بقله الفهم ، ومضى الرئيس في كلامه فقال :

« لقد وضعت اسمك في آخر المقال حتى من غير أن استأذئك »
فتتم « العفو . أستغفر الله »

« لأنى رأيت أن من الواجب انصافك . إن أسلوبك فيه فن وقوة
لا أرى لهما مثبها فى كتابات غيرك . ومن العدل أن يعرف القراء أنك
أنت صاحب هذا الفن الرائع ومبتكر هذا الأسلوب المحكم ،
فوجد قوة كافية للاعتراض فقال : « ولكنى لا أعرف أن
لى أسلوباً ... »

فقاطعه رئيسه إن هذا تواضع يزيد قدرك .

فتحامل على نفسه وقال « أؤكد لك أنى صادق ،
« لا شك فى ذلك »

« ليس لى أسلوب أو فن ، وليس فى قولى هذا شئ من التواضع
أنها الحقيقة . »

قال الرئيس « إذن هو كبير أن يكون بك كبير ،
قال « كلا . كلا . ولا هذا ،

قال الرئيس وقد ضجر « إذن أعصابك متعبة استرح بضعة أيام ،
ولكنه لم يسترح ، وحاول بعد هذا الحديث أن يكتب فصار يمزق
ورقة بعد أخرى ولا يزيد على سطر فى واحدة منها . فوضع القلم يائساً
وقال ما أظننى أستطيع أن أكتب شيئاً بعد هذا ، وراح يعجب كيف
كان يؤاياه الكلام وكيف صار يستعصى عليه الآن ، أسلوب ؟ فن ؟
ماذا يعنى ؟ إن كل ما يعرفه إنه كان يتناول القلم ويجره على الورقة ،
وكانت الالفاظ تسعفه ولم يكن يجد غناء فى تخيرها ، بل لم يكن يتخير
أو ينتقى ، فإله الآن لا يقدر أن يخط حرفاً ؟

وتناول طائفة من أعداد الجريدة وجعل يقرأ مقالاته من جديد
لعله يقع على ما فيها من الفن ويتبين ذلك الأسلوب الذى يذكرونه ، فلم
يهتد إلى أسلوب أو فن ، وألقى الصحف ونهض عن المكتب واستأذن
فى الخروج ، وقد أيقن أن مستقبله فى الصحافة قد قضى عليه .

وبعد بضعة أسابيع دعاه رئيس التحرير وطلب منه أن يتحرى
مسألة من المسائل . فقال « أرجو أن تدع لى مفاتيح المكتبة »
فذهل رئيس التحرير وقال « المكتبة ؟ أو تحسب أن هذا مما يوجد
فى الكتب ؟ »

فسأل « أين إذن أجده ؟ »
قال « لو امهلتنى لما أحوجتنى إلى هذا . » وشرح له الموضوع ثم
قال « فعليك الآن أن تقابل وزير الخارجية فى مكتبه »
فسأل « متى أستطيع ذلك ؟ »

فضجر الرئيس وقال « لاتكن طفلاً يام »
وفى صباح اليوم التالى ركب سيارة حملته إلى الوزارة المقصودة ،
فلما دخل لم يدر إلى أين يذهب ولا إلى أى ناحية يقصد ووقف لحظة
يدير عينه فى البناء ويرجو أن يلتقى أحداً تكون له به معرفة ، ولما طال
الأمراح يتمشى ثم خشى أن يضيع الوقت فعاد إلى الجندى الواقف
بباب الوزارة وقال :

هل تستطيع أن تدلنى على غرفة صاحب المعالى الوزير ؟

فصعد الجندي فيه نظره وصوبه ثم قال : أدخل من هنا وامشي في
خط مستقيم ،

ففعل ولم يزل داخلا حتى صار في حجرة واسعة فاخرة الأثاث
ولكنه لم يجد فيها لا مكتبا ولا وزيراً والتفت فرأى بابا موارباً فد
عنقه وأطل منه فرأى مكتبا وليس أمامه إنسان ، فشجعه خلو المكان
فالتفت وراءه فلم يجد أحداً ، فتقدم خطوة وأطل مرة أخرى فأخذت
عينه ما أيقن معه أن الغرفة غرفة الوزير ولكن الشك خامره . إذ أين
الوزير والساعة الآن الحادية عشرة ؟ وكيف يخلو المكان من حجاب
وشرطة وموظفين قائمين في خدمته ؟ كلا . بل أكبر الظن أن الوزير في
مكان آخر . ورجع فالتقى بشرطى فسأله . فقال بل هي الغرفة وهنا
(وأشار إلى غرفة صغيرة) سكرتير الوزير . لحمل بطاقته مستأذنا في
الدخول عليه وخطر له وهو يناوله البطاقة أن يخبرى الصحف مساكين
لأنه ظنهم لا يدخلون على موظف إلا إذا بعثوا إليه ببطاقتهم مقدما .
وأذن له في الدخول فحياه بلسانه ورفع يده بالسلام فلم يزد السكرتير
على أن هز رأسه ، وقال نعم . قال هل أستطيع أن أقابل معالي الوزير ؟
قال السكرتير : أنه مريض .

فقال صاحبنا : مريض ؟ لا بأس عليه . أرجو أن تبلغه سلامي ،
فابتسم السكرتير وخرج م . وقد سره أن الوزير مريض وأنه نجا
من لقائه أكثر مما ساءه أن عاد بلا جدوى .

وخيل له أن رئيس التحرير يدرك ما انتابه وأنه يعتمد أن يصرفه
عن الكتابة ويكلفه مهمات من هذا القبيل فقد بعث به في اليوم التالي

إلى وزير الحقانية ، فخرج ولم يركب في هذه المرة سيارة لأنه تفقد مافي جيبه فاستقله ، ولم يشأ أن يرهق الجريدة بكثرة النفقات ، وخجل أن يطلب أجرة الركوب مقدما . ولم يكن قد احتاج من قبل أن يذهب إلى وزارة من الوزارات فسأل بعض من لقيهم في الطريق فدلوه ، وكان وهو سائر يفكر في ثقل هذه التكاليف وفي هذه الضرورات المتعبة ، وانتقل من هذا إلى التفكير في الموضوع الذي يقصد إلى الوزير من أجله ، فلم ير أن المسألة تحتاج إلى استنفهام أو لقاء وزير ، وكيف يبدأ الكلام ؟ وماذا يفعل إذا رفض الوزير أن يجيب ؟ ولماذا لا يذهب رئيس التحرير بنفسه ؟

وكان في أثناء ذلك قد دخل من باب وزارة وقطع الفناء ووصل إلى السلم فصعد وهو لا يزال يحاور نفسه وسأل عن غرفة السكرتير فسار به شرطى إليها فأعرب له عن رغبته في مقابلة الوزير ، وكان السكرتير يعرفه فأكرمه ورحب به وطلب له قهوة وبعد نحو ساعة مضى به إلى باب فتحه وأشار إليه أن يدخل .

فقال الوزير « أهلا وسهلا . . . زيارة نادرة ، تفضل »

فجلس على حرف الكرسي وافترقه عن ابتسامة بلهاء ، وكان يدرك أن عليه أن يتكلم ، ولكن لسانه خانه كأنما قد استل منه ، ولم يكن ينقصه أن يحدث له هذا ليزيد ارتباكاه ، وكان الوزير دمثا رخيص الخلق فابتسم وقال له وهو يميل إليه :

« أشرب القهوة ؟ كلا ! إذن خذ سيجارة ؟ ولا هذه ؟ ألا تدخن ؟ »
فأوما المسكين برأسه أن نعم ، فقال الوزير « إذن يجب أن تدخن ؟ »

وقدم له اللعبة فأخذ منها واحدة وأسقط واحدة أخرى على المكتب واستطاع فضلاً عن ذلك أن يطير بكمه بضع أوراق .

وانحنى يريد أن يلتقطها ويعيدها إلى مكانها فصدم المكتب برأسه ونزل الطربوش إلى أذنيه ، فضحك الوزير وقال : « لا بأس والآن ماذا أستطيع أن أفعل لك »

فجر صاحبنا الكرسي ودنا به من المكتب وتنحى ثم استطاع بجهد أن يفهمي بالموضوع ، وكان الوزير في أثناء ذلك يقطب حاجبيه أو يفهمهما أو يستعيد به بعض ما يسمع منه ، وهو مستغرب ، وصاحبنا لا يفتن إلى آيات الدهشة في وجهه ولا يدرك أمارات العجب ولا يلتفت إلى دلائل الملل ، وأخيراً قال : « وقد جئت راجياً أن تفضلوا على بيان وافي على قدر المستطاع في هذا الموضوع »

فقال الوزير ولم يخف امتعاضه « ولكن هذا من اختصاص وزير الحقانية »

ولو كان صاحبنا حاضر الذهن لفطن إلى الغلط الذي وقع فيه ولا استطاع أن يحسن التخلص ، ولكن لسانه سبق رأسه فقال :
« ولهذا جئت لمعاليتكم »

قال الوزير وقد اشتد امتعاضه « ولكني لست وزير الحقانية ، فبهت المسكين ، ووقف لسانه في حلقه ، ودارت به الأرض ورثي الوزير له وادركه العطف عليه فلاطفه وقال :
« لا بأس ، الغلط مردود (وضحك) لم يضع الوقت ، يمكنك أن

تقصد إلى وزير الحقانية الآن ، لقد سرتني زيارتك على كل حال وأرجو
أن أراك مرة أخرى ، نهارك سعيد ،

وخرج م. وهو لا يرى ولا يفهم شيئاً . ماذا عسى أن يقول عنه
رئيس التحرير أو أي إنسان حين يعلم أنه يخطط بين وزير الحقانية ووزير
... أي وزارة هذه التي كان فيها ؟ حتى هذا لا يعرفه أو هل يجرؤ
الآن أن يستخبر أحداً ؟ وهل يجرؤ أن يعود إلى جريدته جاهلاً أي وزير
قابل فوق ما كان من جهله وتخليطه .

ولم يكن يخفى عليه أن الحل الوحيد هو أن يقصد إلى الحقانية ويقابل
وزيرها . ولكن اضطرابه بلغ مبلغاً احتاج معه إلى علاج ، فقصده إلى
تهوة قريبة وألهم أن يطلب كأساً من الويسكي جرّعها صرفاً ولم يلبث
أن سكنت نفسه قليلاً ، فشرب كأساً ثانية وثالثة ثم قام إلى بغيته وبه
من الثقة بالنفس ما لا يذكر أنه أحسه من قبل ، ورأى من الأمانة أن
يكاشف رئيس التحرير بما كان من غفلته . فضحك حتى كاد يقع من فوق
كرسيه وقال :

« يا صاحبي . انك كاتب لبق يسعك ما لا يسع فرقة بأسرها من
الكتاب حين تجلس إلى مكتبك ، ولكن حين تلقى الناس لا تعود صالحاً
لشيء أو قادراً على شيء . فاذهب إلى مكتبك ولا تزايله فإنا نستطيع أن
نخلقك خلقاً جديداً

حلم بالآخرة

- ١ -

وادی الاشباح

عدت من هياكل (الكرنك) ^(١) مكدوداً مغفراً ، وكان الجو دافئاً والسماء صافية لا أعرف لزرقتها في غير (الآقصر) مشبها ، فغيرت ثيابي وبدأ لي أن خير ما أصنع — لأريج جسمي التعب وذهني المكثوظ — أن أركب زورقاً أسبح به على النيل . ولما استويت فيه دليت يدي إلى الماء وانثنت أفكر فيما رأيت واستعيد ما شهدت ، ولكن صورة (سخت) في حجرتها المظلمة أفسدت على هذه الفكرة التي كنت أرجو أن استمتع بها في زورق على النيل ، ومن ذا الذي يراها ولا تعود أبرز ما يطيف برأسه — رأس لبوة وجسم امرأة ، وعينان ليستا بعين امرأة ولا عين سبع ، تحدقان في الظلام وتبحثان عن الفريسة وذلك أنها هي الموكلة بالتهام الارواح المذنبة في الآخرة .

وأغفيت وأنا أفكر فيها ، ورأيت وأنا نائم على النيل حلماً مضطرباً كله تخليط على عادة الاحلام . وانقلب النيل نهراً آخر — ستكس — نهر الاغارقة الذي تقول أساطيرهم أن الموتى يعبرونه إلى وادی الاشباح ،

(١) في سنة ١٩٢٤ .

وآض الملاح الذى يحدف به على النيل (شارون) (١) وإذا على الشاطئ
حشد عظيم من الأموات يسوقهم « هرمز » بالعصا وهم يكون ويولولون
ويندبون الحياة التى خلعوا ثوبها ويبنغون الرجمى إليها ولا يطيقون
الحقيقة العارية الباقية التى صاروا إليها ، ولا يتفرون عن أحلام الدنيا
التى كانت تفيض لهم على الوجود بريقاً مستعاراً خادعاً ؟ آه لقد ذهب
سماؤهم كلها مع تلك الأحلام !

وحشروا جميعاً فى الزورق الذى اتسع لهم جميعاً ، الأطفال حزمة
واحدة بلا سؤال أو مراجعة ثم الشيوخ والعجائز الذين لم ييكنهم أحد
ثم قتلى بعض المعارك فى جهات من الأرض لم أسمع بها فى حياتى - فما
أحوج علم الجغرافيا إلى بعثة تذهب إلى هناك - ثم رجل قتلته امرأة
وعشيقها ، ثم الذين افنتهم الحيات ومعهم طبيب هرم ، ودفع شارون
الزورق على اللجة ، وتركنى على الشاطئ فاحسست بالوحشة وخفت
أن اتعفن إذا بقيت وحدى إلى الغد ، فصحت بشارون أن يحملنى معه
فأبى وقال إن الزورق غاص وليس فيه موضع لقدم ، فبستت غير أن
واحداً من الركاب أهاب بى أن ألقى بنفسى فى الماء وأصبح فقلت له إنى
لا أحسن السباحة وقد ... أغرق

فقبه وقال : ماذا تخشى من الغرق وقد مت ؟

فرميت بنفسى فى الماء وعمت إليه ومد يده لجذبى ودار بعينه فلم

(١) الملاح الذى ينقل الموتى على زورقه إلى وادى الاشباح .

ير لى مكاناً فاطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال وهو يتسم :
أنا أيضاً قلق فى موضعى هذا ، فتعال بنا ننتقى لنا اثنين من هؤلاء
المولدين المنتجبين نجلس على اكتافهما !

وفعلنا ودار شارون بالركاب يتقاضى أجره النقل ، وتنبهت إلى
ذلك فقلت لصاحبي « ولكنى معدم وقد جردوني من كل شيء لما مت
فاذا أصنع ؟ »

قال : « لا بأس عليك ! فما أنا بخير منك ، فاسكت أنت ودع
الامر لى »

وجاء شارون يطلب الأجر ، فقال له زميلى :
« ماذا تنتظر من ليس معه شيء ؟ »

قال شارون : « كيف ؟ هناك أحد ليس معه أجره النقل إلى
الوادي ؟ »

قال : « لا أعلم ولكننا هنا اثنان لا نملك ملياً فأشر ماذا تأمر ؟ »

قال شارون : « واثنان أيضاً ؟ وحق بلوتو اخفك ! »

قال زميلى : « خذ الأجرة من بعثوا بنا إليك ! »

قال شارون : « ولكنك كنت تعرف أن عليك أن تؤدى لى هذا
الحق فلماذا تستعد قبل هذا الحىء ؟ »

قال : « لم يكن معنى شيء ، فهل كان ينبغى أن نظل أحياء وألا
نموت من أجل ذلك ؟ »

قال شارون : « اتريد أن تكون الوحيد الذى يحمل إلى الوادى
بلا مقابل ؟ »

قال : « كلا ! لست الوحيد فان لى رفيقاً ومؤنساً إلى جانبي كما بينت
لك ، وعلى أنا لا نحمل بجائناً ، فانا وحدنا دون جمعك هذا لا نبكى
ولا نتندب ، ثم انا خفيفان لا نثقل زورقك ، وإذا شئت عاوناك ولم
نقاسمك الربح ولم نطلب منك الأجر ،

قال شارون : « ولكن هذا لم يحدث قط من قبل فهو غير جائز ! »
قال : « إذن ردنا إلى الحياة »

فالتفت شارون إلى هرمر ^(١) وقال :

« من أين جئت بهذين الحمارين ؟ وانظر كيف يضحكان ، على حين
يبكى كل إنسان ؟ لقد كان أولى أن يبقيا هناك على ظهر الأرض فها هما
بجديرين بالموت »

ومضى عنا وهو يسبنا ويتوعدنا بقبضة يده ، فأسر إلى زميلي :
« ما أسخف وعيده ! أيموت المرء مرتين ويحمل إلى الزورق
مرتين ؟ »

ثم قال لى بعد برهة ..

« لقد هبطت أنعام العويل والنحيب ، فاقولك ؟ أليس من الواجب
أن نضطرهم إلى رفع طبقها ؟ »

(١) هو الذى يتلقى الموتى ويذهب بهم إلى شارون لينقلهم

قلت : « ولكن كيف يسطك ذلك ؟ »

قال « انتظر »

وتنحج ثم انطلق يغنى :

اقبل الليل علينا بدجاه فاسقنا ، فالدمر آيات الشباب
غننا صوتا كأمواج الحياة بين لين واعتلاج واصطخاب

•

ولم يكذب فرغ من هذه المقطوعة حتى علا الصياح والنشيج . فواحد
يقول « واأسفاه على ما خلفت ؟ » وثان يصرخ « ويحي سيبدد أخى
ما ورث غنى ، وثالث يصيح « ألا من لصغارى ! » وهكذا .

ومضى صاحبي فى غنائه :

أقبل الليل فهاه القدحا أو ليس العمر أيام الصبا ؟
غننا لحنا نديا فرحا يطلق ، الأوصال من قيد الحجي

•

وارقصوا بين المنايا واطربوا أو ليس العمر أيام النعيم ؟
وإذا ما لامكم مستغرب فدعوا اللائم يذهب للجيم
فدنا « هرمز » منه وأوماً إليه أن كف ثم قال :

« أن هذا لا يليق ومن واجبك أن تنديب كالباقين ،

قال مستغرباً « أندب ؟ أندب الحظ الذى أتاح لى هذه الزمة

الظريفة ؟ »

قال هرمز « أن سلوكك شائن . فارسل عولة أو اثنتين على الأقل
فاجوز أن تشذ عن المألوف »

قال زميل « حسن . سأفعل »

ثم وضع كفه على خده وانطلق يصيح ..

« وا أسفاه على ثوبي المرقع الذي لا يقي في شتاء ولا ينفع في صيف
واحزنه على الحفي ، لن أجوب الطرقات بعد اليوم متضورا من الصباح
إلى المغرب ، ولن أنام على الأفريز وأتوسد الحجارة وأسنان تصطك
من البرد ، من ترى سيرت عكازي التي كنت أتوكأ عليها ؟ ويختال في
مرقعي التي كنت أخطر في هلا هيلها !

فضى هرمز عنه ساخطاً لا عناء ورحنا نحن نضحك .

وأنا لكذلك وإذا « بشارون » ينادى هرمز ويصيح به :

أن الزورق يوشك أن يغرق من ثقل ما يحمل . فإذا يفعل ؟

« فوقف هرمز كالآبله حائرا ، ثم وثب رفيق وقال « تعال ننقذ
شارون فانا مدينون له »

قلت « أن الغرق شيء أفهمه وقد أحسه . أما ما عداه فلا علم لي به
يا صاحبي »

قال « ولكنك تستطيع أن تشاركني على الرغم من ذلك

ثم قال لشارون : « اسمع . جرد هؤلاء الموتى مما يحملون وألق به
في الماء . انزع هذه اللحي عن أصحابها . لقد كانت تنفعهم في الدنيا أما

هنا فهي مثقلة بالغش والتضليل . ودعناوى التقوى والوقار والحشمة ،
قال شارون « صدقت » ونزعها جميعاً ورمى بها « وماذا أيضاً ؟ »
— ألا ترى هذا الرجل الذى يبكى ويختلس النظر إلى من حوله ؟
قال شارون « نعم . ماله ؟ »

قال « أخرج من تحت أبطيه الكذب والنفاق والدهان تخلص
من خمسة قناطير على الأقل . وهذه المرأة الجميلة ، عر وجهها وجرده من
المساحيق فان وزنها يجاوز الطن ، أفعل وعجل . » ففعل .
« وهذا الغرور الذى تنطق به عيننا هذا الرجل ، ألا تحس ثقله ؟
أنه يكفى شعباً بأسره ! »

« والفلسفة التى فى رأس هذا » أنها أثقل من الحديد . ألقى بها فى
الماء . أسرع . »

فأطارها شارون عن رأسه

وهذا الأديب هاك . ماذا يصنع بكل هذه الألفاظ والمجازات
والاستعارات والخيالات والسخافات ؟ إنها كافية وحدها لإغراق
زورقك يا شارون ،

قال شارون « نعم والله ! أين كنت مخبئاً كل هذه الأثقال ؟ »
ثم التفت إلى زميل وقال « كفى كفى يا صاحى ! أن الزورق الآن
أخف من الريشة . وأحسنى مديناً لك بإنقاذ سفيتى . »
قال زميل مقاطعاً « أمسك لا تثقلها مرة أخرى بشكرك إياى ،

وعدنا إلى مكاننا وانطلق الزورق خفيفاً يشق النهر ويفرق أمواجه
الراكدة ودنونا من الشاطئ عند الفجر وحاذيناه فوثب صاحبي إلى
الأرض وأنا وراءه

ثم أهوى على الباب العتيق بحجر ضخم وراح يدقه كالذي يريد أن
يحطمه فهب «أتروب» (١) وقد طار كراه وأقبل على الباب يتعثر في
مشيته ، ورمى مصراعيه وسأل : من الطارق ؟

قال زميلي « أنا ،

قال «أتروب؟» « أنت ؟ أنت ماذا ؟ ماشائك هنا ؟ ما اسمك ؟ »

قال إلى زميلي وقال : كأنما كنت شيئاً في الدنيا فيعنيه أن يعرف
من أكون ، ثم التفت إلى الحارس وقال :

« ومن عسى أن أكون ؟ أترك تنهيني بروميثيوس قد فك
أصفاده وجاء يعتق البشر من أسر الموت ؟ »

ثم لوح بيده مشيراً إلى الركب الذي في الزورق ورفع صوته مغنياً :

حي يا أتروب ألوان الصباح طلع الفجر عليكم بالرمم
بين ندب وعويل وصياح جاء وفد الموت من كل الأمم

(١) أتروب حارس الباب بوادي الأشباح

جاء وفد الموت يحدوه الدليل ويغنى سوطه فوق الظهور
ويميل الصف في كل ميل وهو خلف الصف وثاب يدور

●
لست خيراً منهمو وأأسفاه أو كان (الخير) إلا شططا
غلط جاد به ، ثم أباه ، دهر سوء لا يعيد الغلطا

●
بل يعيد الغلط المستردلا ؛ أو ليس الناس أغلاط اتعاد ؟
ولو أن الدهر شاء لإمثلا لخلت منهم قراهم والبلا

●
وكان هرمز وشارون في خلال ذلك قد أفرغا حمولة الزورق ،
فلما سمع الموق هذه الأغنية تصايحوا وضجوا وهموا بزميل ولكنه تلقاهم
بابتسامة استخفاف وقال لهم : أيسومكم أن يلحق بكم من خلفتم فوقها ؟

فارتدوا ساكنين ، وتقدم هرمز بورقة فيها بيان بجمل يعدد الموق ،
فتمسكها أتروب وبدأ يعد ثم كف وهو يقول :

« ماأظن ميتاً يفلت أو حياً يحىء قبل الأوان . إمض بهم يا هرمز
إلى ساحة رادامانتبس^(١) »

فساقنا هرمز أمامه ، وتقدم صاحبي الصفوف وسرت معه في طليعتها
وانطلق يغنى :

(١) قاضى الآخرة في أساطير الإغريق

دارنا مغرب أنوار الحياة من رآها لم ير الضوء الطليق
ما لمن يهوى إليها من نجاه ما لما يغرب فيها من شروق

وهي في الألكوان دنيا عافر كل زخار له فيها ركود !
ضرب السحر عليها ساحر فهي عنوان على عقم الوجود !
وطال بنا الانتظار على باب رادمانتيس إلى أن جاء دورى فتقدمت
وزاحم زمبيلي فدخل معى ولما صرت أمام القاضى سألتى : ما اسمك ؟

قلت : « المازنى »

قال : « ماذا ؟ ال . . ال . . ماذا ؟ »

فلو كنت حياً لآحمر وجهى وقلت :

« المازنى . لقد كنت أحسب شهرتى قد سبقتنى »

قال : دع هذا المزاح . من أين جئت ؟

قلت : « من مصر »

قال : « مصر ؟ ولماذا جئت إلينا ؟ »

قلت : « وأين كان ينبغي أن أذهب ؟ »

قال : « إنك من إفريقية فاذهب إلى قسمك »

قلت : من أين ؟ عهدي حديث بهذا الوادى »

قال : « لا بأس ، سيدلونك عليه . ياهر من . أرشد هذا التائه

إلى سومبور »

فألقيت إلى صاحبي نظرة أسف على فراقه ، فجدبني إلى الوراء وأسر
إلى : « سأذهب معك » .

قلت : « ولكنك لست من مصر »

قال : « ماذا يهم ؟ من أنا حتى يعرفوا أم من مصر أنا أم من غيرها ؟
هيا بنا . »

- ٣ -

بين أبرد القضاة

انصرفنا من ساحة رادمانتيس وثنينا الخطأ إلى الشاطئ . - وكان
هرمز قد سبقنا - وفي مرجونا أن يحملنا شارون إلى القسم الإفريقي فألفينا
هرمز وشارون مختلفين . يقول هرمز :

« لقد آن جداً يا شارون أن تؤدي إلى ذلك الدين القديم فما بقي
لك عذر »

فيقول شارون : « ما أحسبني أنكرت قط يا صديق أنى مدين لك ،
فيهز هرمز كتفيه ويمط شفقيه ويقول : « لشد ما نفعنى أنك لا تقصر
في الاعتراف ! . هذه عملة لا أعرف أحداً سواى يقبلها ، فهات ما عليك
وانكر إذا شئت أنك مدين لى »

فيتقسم شارون ويفرك كتفيه ويقول : « ولكنك لم تبين لى قط مقدار
هذا الدين ، فيقبل عليه هرمز ويقول : « ان البيان حاضر فليتك مثلى

استعداداً لتقديم الحساب . المرسى والحبل بسبعين قرشا .
فيقاطعه شارون « سبعون قرشا . وحق بلوتو لقد خدعوك !
أو انت تضحك على شيتي ! »

فينتفض هرمز واقفاً ويقول بصوت عال « أضحك عليك ! أنا ؟
أهذا جزائي منك ؟ لآمال ولا شكر ؟ »

شارون - هون عليك يا صاحبي فما إلى هذا قصدت . سبعون قرشا
إذن وماذا أيضاً ؟

هرمز - وابر لترقيع القلع ، وشمع لسد الخروق ، ومسامير ، وجلد
للجناديف بعشرين قرشاً ،

شارون - صفقة حسنة . وماذا ؟

هرمز - هذا كل ما أذكر ، تسعون قرشا ، وبسط يده

شارون - الآن يا صديقي يتعذر على أن أنقذك هذا القدر ، فإن
العمل قليل والربح ضئيل . لاوباء يفتك بالناس ، ولا حرب تحصدهم ،
ولكني أعدك أن أودى البك دينك إذا نشطت الحركة ،

هرمز - بمتعضاً - الأفضل عندي أن يظل دينك ممطولا .

ثم نظر إلينا وقال « هيا بنا ،

فقال شارون « هذان المفلسان لا عجب أن يعودا وأن ترفضهما
حتى الجحيم .

فقال صاحبي « الا تنقلنا إلى .. »

فقاطعه شارون ولم يمهله ريثما يتم كلامه « أنا ؟ أتراني جنت ؟
اذهب انت وصاحبك فما فيكما خير . »

وهكذا رددنا ، وذهبنا سيرا على الاقدام ، وجعل هرمن يشكو
في الطريق ويتسخط ويعرب عن تبرمه بحياته وكثرة الواجبات الموكولة
إليه . فهو يقوم في الفجر وبعد المائدة السماوية ويرتب حجرتها ثم يقف
بجانب زيوس ليتلقى أوامره وليؤدى رسالته إلى أصحابها النهار كله ، وفي
الليل لا ينام بل يذهب بالموثق إلى بلوتو ويقف في ساحة القضاء حاجباً ،
ثم أنه يدرّب الخطباء ويشهد الاجتماعات ويفعل غير ذلك أشياء يخطئها
الحصر . حتى لقد كان يؤدى وظيفة الساقى لزيوس قبل أن يتزيا
(زيوس) في زى نسر ويخطف الغلام (جانيميد) ويتخذ ساقياً
له يأخذ من كأسه رشقة ، ومن شفّتيه البضتين أخرى ، ويكاد به زوجته
(هيرا) .

وأخيراً باقنا سهلاً فسيحاً أمام (الكرنك) وسرنا مسافة في ظل
أشجار الليمون ، حتى خرجنا من تحتها ووقفنا مع آلاف الموق من
أمثالنا ، وكان القضاء خمسة وقد جلسوا صفّاً واحداً ، فأسر إلى صاحبي
ان تعال نشهد الرواية من أولها ، وجذبي وزاحم بي حتى صرنا إلى الصف
الأول فسمعنا من عرفنا من حولنا أنه (سومبور) وهو رجل نحيل
هزيل الجسم متهمم الوجه أسود العينين براقهما وفي يده زهرة من
زهرات البردى يقول :

« أيها الزملاء ، ان (سخت) تنتظر ! »

فسرت في أجسامنا رعدة ، ونودى الأول فتقدم وسمعنا كلاما كهذا .
سومبور - وهو يعث بزهرة البردى - قبل الحق الذي تعرفه
ولا تحاول أن تكذب . أهى الخمر ؟

قال الرجل - نعم

ديارناك - (وهو مد يد القامة معتدلا كالجندي لا يلتفت يمنة أو يسرة
وحول وجهه لحية كثة) .

« هل حوكت من قبل على الشراب ؟ »

الرجل - لا ياسيدى

مبرون - (وهو عريض الوجه لماع الجلد كأنما كان قد دهنه بالليل
يبتسم تارة ويتجهم أخرى وفي إحدى كفيه قطعة من الذهب وفي
الأخرى صورة صغيرة)

« كيف تقول ؟ من أى بلد أنت ؟ »

الرجل - من قرية أسمها...

بوتا (وهوبدين قصير أحمر الوجه أبيض الشعر له عينان كعيني
الخنزير وأمامه ختم ذهبي كبير) . دع هذا وقل لنا لماذا أولعت بالشراب ؟

الرجل - لأنه مريض .

بوتا - لست أفهم . انى أحب الكأس فأو الاثنين من الويسكى
مشعشا بالصودا ولكن الافرلط ... هذه هى المسألة .

الرجل - أن المسألة هكذا ، كلما الح على الإحساس بالشقاء

افرطت في الشراب ، وكلما افرطت في الشراب زاد الحاح الإحساس بالشقاء ...

مبرون — الحلقة المفرغة مرة أخرى .

موروسكن (رجل مثقف مغضن الوجه على ذراعه قطعة يسمح لها شعرها بيده الأخرى) وماذا عندك غير هذا على سبيل الدفاع عن نفسك؟ الرجل — لا شيء . ولقد يخيّل إلى الآن بعد أن مت ، انى كنت أستطيع أن أنقذ نفسى لو انى اشتغلت فى الدنيا بوصف السعادة للناس حين أحس أنا بالشقاء .

موروسكن — أتقصد انك كنت تريد أن تكون روائيا؟ هذا جميل الحق أقول ياسومبور . إنى أعتقد أن التفاؤل لا يزال يقوم فى الدنيا على قاعدة من مرض الفنان أو شقائه . أليس كذلك ؟ .

سومبور — قد يحلّو لك هذا البحث . أما أنا فاطلب أصواتكم . ديارناك — أن الشرب أفقد الدنيا جنديا . فليقذف به إلى (سخت) . مبرون — سخت .

موروسكن — ولكن الرجل يكاد يكون فنانا، إن التماس السعادة ... سومبور — ليس عندنا وقت لهذا . هاتوا بقية الأصوات . بوتا — سخت .

سومبور — خذوه إليها — باربعة أصوات .

* * *

وجروه إلى شجرة ليون وهمس صاحبي في أذني « جاروا ولم يعدلوا » .
قلت « ولكن مورو سكن » .
فقاطعتي صاحبي « أنه مغفل » .
ونودي الثاني ، فتقدمت فتاة وسيمة شاحبة اللون مقدودة قد
السيف ، ولكن عينيها ، على جاهلها ، كالكهفين .
وقال سومبور — كم سنك يا هذه ؟
الفتاة — اثنتان وعشرون سنة .
مورو سكن — قبل الأوان . قبل الأوان .
بوتا — لماذا مت ؟
الفتاة — فزعا .
مورو سكن — فزعا ؟ ما أقسى هذا .
سومبور — من أي شيء ؟
الفتاة — من الشرطة .
مبورون — آه أمنهن أنت ؟
الفتاة — نعم يا سيدي ، ولكن مهما يكن ذنبي فقد شاركني في
اثمه رجل .
مورو سكن — متأثرا — هذا حق وأنها لمن الفظائع الكبير ، أن يضع
الرجال الشرائع وأن يتحيزوا فيها لأنفسهم .
بوتا — ولكن ماذا دفعك إلى هذا ؟
الفتاة — تزوجت رجلا كانت حياتي معه جحيما ثم أحبنى آخر

وظننته « الرجل الموافق » ولكن الغريزة خانتني ، ولقيت ثالثا قلت
لعله هو الموافق ولكنه لم يكن ، وهكذا حتى لم أعد أعبا من يحبى ومن
يروح وأن كنت لم أزل أرجو أن أقوز « بالرجل » .

موروسكن - آه ! طلب الكمال والسمى إلى المثل الأعلى ..

بوتا - ماذا تقول أمراق لو سمعتها ؟ أن لى فتيات ... دعوها ،
أخلوا سبيلها .

ممبرون - أن روابط المجتمع تنفكك إذا أطلقناها . فلتذهب إلى
« سحت » ،
ديارناك - سحت .

سومبور - صوتان يطلبان لها الخلاص ، وآخران يبعثان بها إلى
سحت فعلى أن أوازن وأن أرجح أحد الرايين . إذا أطلقناها فكأننا أبخنا
الخطيئة ، فبأى وجه بعد ذلك نهى الناس عنها ونزجرهم عن مواقعتها
وننذرهم سوء المصير . إن هذا يكون خطراً بينا ، نعم أن الرحمة والعطف
يدركان النفس على مثل هذه المسكينة غير أنا خلفاء إلا نطمئن إلى الصوت
الذى يدعونا إلى الشفة ويغرينا بالرحمة ، ولا أكتسبكم إن نفسى لاتطاولنى
على الحكم عليها ، ولكنى على الرغم من ذلك أحس أنى أكون منكراً
لنفسى ومعتلاً لسلطانى ومبطلاً لوجودى إذا أعفيتنا من العقاب ، ونحن
هنا قضاة الآداب وفياصلة الاخلاق ، افنكر أنفسنا ونعطل وظائفنا؟؟
كلا ! فبكرهى أقول « سحت » ، فلتؤخذ إليها بثلاثة أصوات .



فستارعت باسمة وإن ظلت عيناها زائغتين ، وحطت على كتفها وهي
سائرة حمامة بيضاء ، فأمالت إليها خدها .

وقال صاحبي : « جاروا للبرة الثانية ، والحمامة شاهدي ، » .

ونودى الثالث ، وكان إلى جانبي . فرفعت إليه عيني وعجبت كيف
يكون صاحب مثل هذا الوجه شريراً ؟

وسأله سومبور - ماذا جاء بك إلينا ؟

الرجل - طردت عن كل باب ؟

موروسكن - يوشك أن يكون هذا ممتعاً ، فإذا انت ؟

الرجل - أنا كالريح تهب بشجرة بعد شجرة .

ديارناك - قل وأوجز لماذا طردت .

الرجل - لأنه لاخير في ، لأنني جاهل ولا مزية لي إلا حب كل ماهو
حي . لأن كل من يلقاني يقول : « إذا تقبلناه فقدنا القوة والمال ولم يبق
لنا سوى الحب ، وما جدوى الحب ؟

مهورن - أنك عامل من عوامل الانحلال والتفكك .

الزجل - كالريح أيضاً — هي التي تحلل وهي كذلك التي تؤلف
وتجمع .

سومبور - وهل في وجودك ما يعارض وجود القضاء ؟

الرجل - إن من يتقبلونني لا يعودون يعنون بالحكم على شيء لأن

قلوبهم تكون أحفل بالحب من أن تفكر في سواه .
ديارناك - انت متمرد .

الرجل - كلا ، ولكن حيث أكون لا يبقى محل للأمر والنهي لأن
كل شئ يكون في خدمة الحب .
بوتا - هذه فوضى .

موروسكن - انى معجب بك ، ولكنى أحب أن أطمئن ، فقل
لى : هل وجودك يضر براحة الحياة ونعيم العيش ؟

الرجل - ما هى الراحة ؟ وأى شئ هذا النعيم ؟ أهما شئ غير الايثار
وكف الاذى وأن يخفق القلب بالغبطة وان ..
موروسكن - دعنى من فضلك .

بوتا - ماذا يكون مصيرى لو أشركت الناس فى مالى ؟ وآثرتهم على
نفسى ؟

كلا ! يا سيدى ، إن خير الدنيا إن تفتح سحت فيها لتبتلعك .
سومبور - إذا بقيت إنت فلن يبقى محل لى ولا لقضائى .
ديارناك - ولا لجنودى .

مهبون - ولا لشرائعى .
موروسكن - ولا لراختى ، فأنا آسف .

واجتمع الخمسة على أن يلقموا سحت هذا المسكين .

قال صاحبي « لقد أصابوا ،
قلت « ماذا تعني ؟ بأى حق يرسلونه إلى سحت ؟ »
فقال « ليس هذا وقت الجدل ، فانهم يشيرون إليك »
قلت « إلى أنا ؟ »
والتفت إلى الخمسة فوجدت عيونهم على ، فتقدمت في اضطراب
ووجل .

قال سومبور - من انت ؟
أنا - أنا المازنى .
بوتا - انت ماذا ؟
أنا - أقول انى المازنى .
ديارناك - بأى لغة تتكلم ؟ أسرع .
أنا - انه اسمى .
موروسكن - مسكين إن صبرك على حمل هذا الاسم يرفع عنك
أوزارك .

أنا - ليس هذا ذنبى .
موروسكن - قد غفرناه لك فإذا انت ؟
أنا - أديب .
بوتا - أديب ؟ اذن فانت عاطل وطفيلى

أنا - كلا . لقد قتلتى العمل وما كانت شكواى إلا قلة الراحة .

موروسكن - اسمعوا . اسمعوا !

سومبور - مهلا . اتبعوا له فرصة . بأى شئ كنت تشتغل .

أنا - بالصحافة .

الجميع - الصحافة ؟ !

وانتفضوا جميعاً واقفين بشيرون إلى شجرة الليمون حيث وقف
الثلاثة المقتضى عليهم .

وقال سومبور : سخت بالاجماع .

ثم التفت إلى زملائه وقال : وحسبنا اليوم هذا واعتفوني من شهود
التفتة فلت أقوى عليه بعد هذه الصدمة .



ووقفت تحت الشجرة مع رفاق الثلاثة انتظر « سخت » ، وإذا بصاحبي
يجذبني ويقول :

« تعالى يا ابله ،

قلت : « إلى أين ؟ » ،

قال : « ماذا يعنيك وقد نجوت من سخت ؟ » ،

قلت : « نجوت ؟ كيف كان ذلك ؟ » ،

قال : ولقد عز علي أن تكون بين الفرائس فذهبت إلى حيث قيدوا
« سخت » فلما صار القضاء عندها سبقت الحارس فاطلقتها عليهم فالتهمتهم
بدلا منكم ، ولكني والله اسف على نجاة جارك ! على اني على العموم
أراني أعدل من هؤلاء القضاء يرحمهم الله ،

فأرسلتها صيحة فرح عالية فتحت عيني على النيل وحقائق الدنيا
على شاطئيه .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٠٨٨ / ٢٠٠١

I . S . B . N 977 - 01 - 7229 - 4

1

2

3

4

5

6

7



بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى
طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعاً
لمموساً حياً يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة
تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير،
خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة
اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى
كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة
تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة
احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلفها
على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كياناً ثقافياً له مضمونه
وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة
فى مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة
للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا
المشروع كان سبباً قوياً لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التوزيع تواصل إشعاعها بالمعرفة
الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدراً أساسياً وخالداً
للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن
على التوالي، تضيف دائماً من جواهر الإبداع الفكرى
والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زاداً
ثقافياً لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة
مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠
قرش

736

Bibliotheca Alexandrina



0395559



مهرجان القراءة للجميع